الحاجز الصخري

جميع حقوق الطبع والنسخ والنشر محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٣٩ هـ - ٢٠١٧ م

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

بيومي، عيسى

الحاجز الصخري: (رواية) / عيسى بيومي. ـ القاهرة: المكتب المصري الحديث، ٢٠١٧.

ص؛ سم

تدمك : ٠ ٢٩٧ ٢٠٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

٢- العنـــــوان

٨١٣

رقم الايـداع ١٠٦٦٨ / ٢٠١٧ بتاريـخ ٧/ ٥ / ٢٠١٧

لا يجوز إعادة نسخ أو طبع أو نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي طريقة كانت ميكانيكية أو إلكترونية أو التصوير أو التسجيل أو البث عن طريق الشبكات الإلكترونية أو غيرها إلا بموافقة المؤلف على ذلك كتابة ومقدمًا

المكتب المصري الحديث

www.almaktabalmasry.com

email: may642003@yahoo.com

القـاهـــــرة: ٢ شارع شريف عمـارة اللـواء ت : ٢٣٩٣٤١٢٧

الإسكندريـــة: ٧ شـارع نوبار المنشيـــــة ت : ٤٨٤٦٦٠٢

الحاجز الصخرى

عيسى بيومي

المكتب المصرى الحديث

" فى نفس كل منا حاجز يفصله عن الحقيقة كما يجب أن يراها ، أحياناً من غرور وأحياناً أخرى من جهل . قد لا تكون الحقيقة بهذا القدر من البشاعة لتحتمى منها النفس وراء أى حاجز".

قال لنفسه وهو يتأمل الارتفاع الشاهق الذى يفصله عن الصخور الحادة المتعالية : " هنالك فوق إحداها ستتهشم رأسى وتنتاثر أعضائى أشلاء متفرقة، ليلتهمها الموج من بعد غذاء لدواماته العاتية أو يلفظها البحر فى هدوء كأنها قطع خشب بالية . ويصيح صائح وقد اكتشف بقايای (لقد فعلها آخر ومن نفس المكان) ، وتذهب صيحته هباء فما كانت سوى صيحة مفاجأة. وتمضى الأيام حاملة ذكراى خبيثة أو طيبة ليطويها نسيان الأبد . إلا أن يتقدم فاعل جديد وتسمع الصيحة من نفس المكان فيضيف لمن سبقوه لحظة تذكر خاطفة.

كم كانت تفزعنى أشباح تتراقص فى مخيلتى إذا هممت بالاقتراب من تلك الهاوية وحركنى الفضول ؟ كنت أكاد أسمع صرخة إستغاثة صادرة من عمق رهيب يوقن صاحبها بقلة جدواها وأنها أثر من وهم حمله إلى عالم مجهول وتتراءى لى صورته اليائسة وهو ينظر خلفه نظرة أخيرة فأبتعد فى خوف تطاردنى الظلمة بأشباحها وتحذرنى أن اقتربت من حدودها . وأستمسك بالأمل ، بل وأخلقه خلقاً من أمسى ومن حاضرى لينمحى من ذاكرتى ما صور لها فى لحظة فضول.

اليوم امتنعت أشباح الأمس ، وأرانى اقتربت فى هدوء ، لم تتأثر أذنى لأى صوت ، ولم يتراءى لبصرى صور يائسة ، كأنما كانت صرخة الاستغاثة صدى لخوف أن أقف موقف من سبقنى فلما انتهيت إليه انكشفت الحقيقة فيه .. أن الخوف لم يكن فى موقفه أو موقفى لكنه ـ حقا ـ فى أن أنتهى إليه ، فلما انتهيت إليه أمتنع الخوف وعرفت أن صورة اليأس يخلقها فينا الفزع وهو شئ بعيد كبعد هذه الصخور ، أذن فكل أمل خلقته تلك الظلمة باطل ، وأننى حين أبتعدت عن حدودها هلعا كنت فى الحقيقة أقترب!

لكأنما تدبر الأقدار منذ البداية بنية سيئة لولا أن سبقتها التدبير فى كل حين حتى انتهينا معا وإلى نفس المكان .. الذى اخترته يوما معبداً عاهدت فيه نفسى أن أحيا بالفضيلة والحب وأن أتلمس مثل الإنسان الأعلى كما توحى به السماء ، كان الكون شاهدى يومئذ مباركاً إيمانى وعهدى ، وهرعت إليه بعد حين أزف إليه بشراى أنى أحببت، واجهنى لحظتها بصمت يغلب فيه الحذر الرضى كأنما يوحى إلىّ بالتريث فى مشاعرى وقد أحصى من عيون الندم كثيراً ، وطفقت اصف له رقة مشاعرها وعلو روحها وصفاء نفسها ، وبدا كأنه اطمأن قليلاً إذ لم أصف له وجهها وجسدها ، فأعدت عليه حديثها كى يثبتنى إذا راودنى فى نفسى شك.

قالت لى يومها وقد سألتها ما أملك فى الحياة:

ـ آمل ألا يشوب صفاء مشاعرى كراهية أحد ،أن تمضى بى حياتى لا أسخطها مهما كان حظى فيها ، أن يطمئن الناس أن ما ينالونه أكثر مما يحتاجونه فلا يحقد بعضهم بعضاً ، ولايتصارعون والموت قريب منهم أجمعين.. أن يكون الحب وسيلة بقاء الإنسان كما كان سبب وجوده . هذا ما أتمناه يا "مراد".

طغى الإعجاب بمنطقها على مشاعرى فقلت لها :

ـ يمكن للحب أن يصبح قانون الحياة إذا أعلن دعواه أمثالك ممن أخلصوا قلوبهم ونقوا ضمائرهم من رذائل المادة.

نظرت إلىّ نظرة عميقة ثم قالت :

ـ بل إذا كانت دعوة كل إنسان على وجه الأرض.

قلت لها:

ـ الإنسان فى حاجة دائمة لمن يأخذ بيده إلى طريق الحق ، هذا واجب العارفين، أن يصبحوا قدوة ومثلاً صالحاً.

عادت تتأملنى بشكل لم آلفه منها من قبل ، كأنما تريد أن تفصح عن شئ وشئ آخر يحجم بها . لكننى أذكر ـ وا أسفى ـ كم كانت عيناها فى تلك اللحظة جميلتين جمالا لم أعرفه فى أى عين. لقد كشفتا من روحها معدنها الطاهر وفتنتا منى العقل والفؤاد. هممت أن أحتضنها كأنها وديعة من السماء . لكننى كظمت انفعالى خوفا أن ألوث تلك النظرة فيها.. دنت منى وفى تطلعها نداء يلح فى أذنى أن لنا طريقا واحداً فى الحياة فلنمض فيه معا .. لتكن دعوتنا للحب جهراً، لنجعل من نفسينا مثلاً صالحاً.

شعرت أنها ترتقى بى درجات عالية كنت أرنو نحوها دائما فى حذر ، لمحت ما دار فى نفسى فقالت معاتبة.

ـ لست أنا التى تأخذ بيدك يامراد ، بل أنت الذى غرست فى نفسى الحب ورقيت بى إلى عليائه ، بسماحتك وخلقك الرفيع وحديثك عن مثل الإنسان الأعلى ، لقد جعلتنى أدعو بدعوتك بيقين وإخلاص مهما جادلنى الناس ، ذلك ما تمنيته للجميع ، أن يروك كما أراك.

ذابت كلماتى فى لسانى ، ضعفت أن أكظم هذا الانفعال الطاغى.. وهل يلوث أحساس نقى أحساسا نقيا ؟ احتضنتها بذراعىّ وضممتها لقلبى بقوة ، هى التى أريد أن تذوب فى كيانى ، استجبت لندائها الذى ألح فى أذنى مصراً أن ألبيه منذ اللحظة الأولى ، وظللت أتحققه وكان حقيقيا فى هذه الأنثى الراقية ، وانتظم فى نفسى حديث هممت أن أبوح به إليها فأشارت إلىّ بالصمت ، فآوينا إلى سكون كسكون الأرواح فى مثواها الأبدى.

ثم انطلقت إلى هنا تفيض مشاعرى بالفرحة ، تغزو خواطرى السنوات الآتية فى شوق وثقة ، لقد وجدت إلفى ووجدنى فى سبيل الإنسانية الراقية . أصغيت إلىّ ليلتها ، نعم شاركتنى فرحتى ، اهتديت بأنجم سمائك الزاهية لحظ

سعيد . لم ألحظ وقتها أية علامة حذر كنت دائما تلوح بها إذا أفصحت لك عن نفسى ، حتى الموج كان يتراقص فى خفة ورشاقة ، لم يسكن مترقبا ولم يصطخب ساخطاً متذمراً ، بدا أن ذلك الحاجز البعيد يحمل فى امتداده منافذ تخفى على عيون العقل وتنكشف فى لحظة لعيون الضمير . حقا لقد كنت فى ثقة راسخة ورجاء صادق من الحياة.

طفقت الأيام تملى لى وتعطينى وأنا بها زاه رضى ، كلما التقيت بها ازددت افتتانا واتسع قلبى للناس أجمعين . ثم بدا أن خفق القلوب لايكفى لاستمرار الحياة ، أن سماءك الزاهية كانت تعلن فى صفحتها أمراً لم ألحظه فى سعادتى الغامرة .. أن علامة الحذر التى لوحت بها دائما كنت تلوح بها بغير وعى وبغير إنتباه منى لما يستحق الإنتباه فيك.. أن أصغاءك لى كان كاصغاء الأب الخبير لما يحكيه إبنه من قصص خياله الخصب ، فيرى الإبن إقبال أبيه فى محبة وشغف ليظن ما يحكيه حقيقة وأنه قد بلغ مبلغه .ثم يتذكر بعد حين حقيقته بشئ غير قليل من السخرية ، وهى تعنى لمن بلغ نوعا من الانهزام.

كانت يومها تجلس إلى جانبى وقد استغرقنا تأمل الأشجار المتكاثفة المترامية على مدى البصر توحى للناظر إليها بأن هناك شيئاً لاينتهى فى هذا الوجود ثم اخترق صوتها الصمت المحيط معلنا أن كل شئ إلى انتهاء ، قالت

ـ لم تسألنى أبداً عن حقيقة مشاعرى نحوك..

وسكتت كأنها بقولها تنشط ذاكرتى وتلفتنى إليها ، ألتفتّ فى لحظة فشاهدت فى ملامحها وجها أعيانى اختراقه . قلت فى تردد .

ـ حسبتنى فى غير حاجة لسؤالك ، كانت إجابتك واضحة فى عينيك وأناملك ومن يسأل حينئذ إما ضعيف الرؤية أو واهن النفس.

قالت بعد لحظات:

ـ لم تفهم ما قصدت.

شعرت للمرة الأولى أنها بعيدة عن هذا المكان الذى يضمنا ، لم أعرف ماذا أقول فلذت بالصمت . لكنها عادت بعد قليل تقول

ـ إننى لا أعنى أنك لم ترنى بوضوح . بل أشعت عيناك فى نفسى حينها صدقا وصفاء لم أعهد مثيلا لهما من قبل .. لكنها كانت فرحة اللقيا بروح آخر سمت به الحياة..

أضافت وهى تتأملنى :

ـ وهل يعنى ذلك حبا لك ؟

ظللت أفكر فى حديثها وقد ساوت المفاجأة منه صدقها فيه ، ثم قلت فى غموض.

ـ أنتِ أيضاً يا هناء لم تسأليني حقيقة مشاعرى ، لكننى لا أظن أنك ترددت لحظة فيما تكون ، لا أظن جوارحى أخفت عنك لمحة واحدة من لمحات الحب ، بل تحدثت عنه بتفصيل مبين ، ربما من قبل أن تنتبهى لذلك الروح الذى فرحت بلقياه . قد كنت أنتظر ذلك الإنتباه منك.

سكتّ وقد زاغت الكلمات من ذهنى ، ساد الصمت بيننا ، ثم قطعته مستأنفا الحديث الحيرة لاتزال تمتطينى ، شئ من الخوف المجهول الهوية يتراقص فى عينيها ، قلت:

ـ تدهشين أنى لم أسالك حقيقة مشاعرك ، وهل تتساءل الأرواح بلغة بيان؟

قالت فى صراحة :

ـ لقد قصدت حب المرأة للرجل ، ذلك الذى يمد للحياة بقاءها، هل تراك تصورت الوحدة كافية لبلوغ مثل الإنسان ، أو أن النبض المتناغم لقلبين هو

أحق ما ينصت إليه الوجود ؟ إننى لا أنكر فرحتى الغامرة بلقياك ولا اقدر أن أغفل أثرك العميق فى أفكارى ومشاعرى، أنت حقا توأم لروحى سمت به صفاته العالية ولكن ..

لاح فوق جبينها حزن ثقيل وهى تضيف

ـ لقد جهدت أن أغرم بك كرجل ، لكن نفسى عصيتنى وغلبنى ضعفى على قوتك .. كم فزعت من شفتيك وهما تقبّلانى وكان لهما فى ضميرى دائما طهر القديسيين.. هل يغفر مؤمن لخياله قط أن يتمثل من فم راهب أحرّ قبلات الغرام ؟ كانت هذه نظرتى إليك منذ البداية ، دلتنى عليها ملامحك الأمينة المطمئنة لشئ مقدس فى أعماقك ، لم يكن فى نظراتك خبث الطوية أو طمع الشهوات ، كانت نبرتك تؤلف ما بين الأذن والعقل فيطمئن الفؤاد ، حتى ملابسك يوم رأيتك كانت هادئة واثقة كأنها صنعت بصنعتك . نادتك أعماقى أن تمنحها قليلا مما منحت فأعطيت وأجزلت .. كان منتهى أملى لحظتها أن أذوب فيك ، عرفت من بعد وحتى هذا اليوم أن ذلك شئ لا أستطيعه أنا مهما فعلت ، ربما لأنى لا أستحقه فى الغيب البعيد.

انفجرت باكية وقد أثقل الأضطراب أحساسها ، لم أنتظر أن ينقشع غموض حديثها عن هذا التناقض الغريب الذى استعصى على فهمى وقتها أيما عصيان. حسبت أنها ترمى من وراء كلماتها إلى استبصار المستقبل ومعرفة ما يجول بخاطرى تجاهه ، أو أن بعض الملل تسرب فى مشاعرها كما يحدث بعد كل موجة انحسار ، وذلك سينتهى لنخطو على سبيل الحب خطوة أخرى بعد حين . أما أن تنكشف طويتها عن هذه النفس الأبية المترفعة التى تتهم خيالها إذا أملت عليه الغريزة منطقها ، التى صورت منى إنساناً بعيد المنال فقط لتطلعى إلى مثل الإنسان ، فذلك ما ألجم عقلى بالعجز والحيرة . عبثا حاولت يداى أن تمسكا

بيديها أو تمسح عيناى دموع عينيها فقد شعرت أن البعد بيننا هائلاً، كأنه البعد بين ما توشك يدى أن تقبض عليه فى حلمى وما يتلاشى فراغا فى واقعى".

عصر الحزن قلبه وذكرى هذا النهار تنهض حية من أعماقه ، وتراءت له عيناها من أغوار الهاوية تقصان عليه آلامها الخالدة فأوشك أن يستسلم فى هذه اللحظة لما قر عليه قراره وأتى إلى هنا لينفذه ، لكنه تذكر وعده أن يترك لنفسه فرصة الدفاع حتى اللحظة الأخيرة لكى تنتهى حياته بطريقة منطقية لاتناقض أسسها السابقة وإلا كانت كعدمها ! عليه أن يفند حججها مهما احتالت عليه، وأن يصمد لذكرياته مهما فتت فى كيانه دون أن تعجله على أمره ، لكى يخلص منها نجيا ، أو فليؤجل ما اعتزم عليه إلى الغد أو ما بعد الغد وهو ما لن يقبله سوف يقضى عليها اليوم بضعفها وحيرتها ويرد بمنطقه الواضح تكالبها المبتذل أن الحياة لن تمنح العظمة لإنسان يتهالك عليها بلاسبب أو بأى سبب كما أفصح فى رسالته لعدنان ، ولن يتراجع.

من أغوار الهاوية إنساب صوت خافت تأمنه العينان الخالدتان على سرها الدفين:

ـ أما كان لمنطقك أن يأمنى سعادة الحياة وقد أفسحت لى من آفاق مشاعرك؟

ومض فى ذاكرته قولها ذاك من بعيد وهى تجفف دموعها وقد هدأت قليلا، كان رده:

ـ لن أغفر لنفسى أن سببت لك هذا الألم الذى تئن به عيناك فتورثانى حزنا طاغيا.

قالت باستسلام غريب:

ـ لن أغفر لنفسى أدنى إحساس بالحيرة أوقعتك فيه أو لحظة ألم تمر بك أكون سببها ، عدنى يامراد ، أنك ستفهمنى ، فذلك طريقى الوحيد للنجاة.

وقبل أن يفكر فى ترجمة ما يحسه من غموضها ، فتحت حقيبتها وأخرجت مظروفا مغلقاً سلمته إياه وهى تقول:

ـ وقت ما سأطلب منك أن تفتحه وتقرأ ما فيه ، رجائى أن تفهم حينئذ ، وحتى هذه الساعة احتفظ به مغلقا ، هل يمكننى أن التمس منك هذا؟

أجابها وقد بلغت به الحيرة مبلغاً عظيماً

ـ وهل يمكننى أن أرد لك طلباً يا هنائى ولكن..

قاطعته قائلة بإصرار:

ـ سوف تكون هذه الساعة قريباً ، أرجو ألاتسألنى شيئاً .. رباه كيف أصبح إن لم يغفر لى ويفهمنى كما فهمته وغفرت له ؟!

بعد صمت قصير نهضت ونظرت فى عينيه نظرة غريبة وانصرفت مصرّة ألا يصحبها إلى ناحيتها كما هى عادته ، تركته غائماً فى عالم من الخيال والوهم يحاول أن يختلق منه صورة متآلفة لما تراءى له منها . هل هى حقا تحبه كما أحس بذلك منذ البداية إحساساً يستعصى بطلانه وأنها وجدت فيه إلف روحها ؟ أم أنها تمثلت فيه حلما راودها فى منامها وتأبى أن تفرط فيه لواقع ؟ ما معنى أن تجهد نفسها لتحبه كرجل ، أن ضميرها يأبى على شفتيها أن تلمسا شفتيه لتبرر بوهمها طهره وقداسته ؟ هل اهتزت ثقتها بنفسها فلم تطمئن لمسلك سلكته أو ستسلكه بعد حين أم أنها أسرفت فيها فظنت أنها ستصل إلى المثل الأعلى كما تراه ؟ ارتعد للحظة ونفسه تلقى عليه هذا السؤال ؟ ألا يمكن أن تكون قد أحبت سواك ، ذلك الحب الذى نشدته فيك فلم تجاوبها نفسها إليه ، ثم أتت حيرى يصعب على وعيها أن يوفق بين مشاعرها الراقية والقليل المتاح أمامها أو الذى أتاحته لنفسها ؟ وكان لذلك السؤال صداه .. فقد سلمته منذ قليل خطابا

وعدها ألا يقرؤه حتى تطلب منه ذاك ، فماذا فيه لايمكنها أن تفوه به أو تخشى ألا تقدر عليه ؟ ولم تسلمه له اليوم طالما لن يقرأه ؟ كان يمكنها أن تحتفظ به معها حتى يحين موعده!

ظلت الشكوك تحوم فى نفسه والتساؤلات تسترسل فى ذهنه دون جواب مفيد ، وأتى عليه الليل وهو جالس فى مكانه لم يتحرك ، ثم تراءى له أن ينتقل لمنزله ويستسلم للنوم فهو يفيده أحياناً من عذاب الوساوس ويجدد قواه ، لكنه أخذ يسير بغير هدى لايفطن لحركة قدميه إن كانتا تبتعدان به أو تدنيان ، ولما انتبه لموقعه لحظة شق طريقه للبيت فوصله وقد انتصف الليل ، ثم ألقى بجسده فوق مقعد بعد أن أغلق دون العالم أبوابه ونوافذه .

ما أن استكان بجلسته وبدأ يهدأ حتى فاجأ نفسه بهذا الرأى :

" سوف أقرأ خطابها الآن".

كانت لحظة ضعف فيها الضمير أمام قوى غامضة تمزق النفس وتملى فيها للألم والعذاب ، طلبت نفسه النجاة كما يطلبها كل مهدد بما تصل إليه يداه ، فأى صوت يسمع حينئذ غير صوت الحياة ؟ لابد أن الخطاب يحمل ما يضئ له هذه الظلمة التى أطبقت على عقله .. وهل تصل يداه لسواه ؟ أن حيرته ستعذبها إذا أحست بها ، وفى زوالها أمان لها ولنفسه ، وذلك عذره لوعد تحلل منه، ليس لغير هذا طريق ، امتدت أصابعه إلى المظروف ففضت ما كتبته فيه.

لم يتصور حين رأى هذه الفتاة وهام بها أنها ستلقى بالا إليه أو تنشغل خواطرها للحظة بما يقول ويفعل ليكون من بعد موضوع حياتها الفريد ، لو تصور مثل هذا لبدا غريبا أمام نفسه متهما بالغرور والخداع . لقد كانت يوم رآها آسرة للأنظار مخفقة للقلوب ، لولا اللياقة التى يتصف بها عدنان ما قدمه إليها كأحد أصدقائه المقربين، فما له بالجمال والغنى والمكانة العالية ؟ أمور تتخايل

فيها صاحبتها كأنها لم تخلق لسواها.غابت عن عينيه بين مدعوات الحفل لتتلقاها من بعده ألف عين لأصحابها التصور دون أن يتهموا بغرور وخداع . وشعر بظلم الحياة أن تمنح أحد الألسنة مخاطبتها فلايكون لسانه . تمنى لو تخص سمعه بكلمة من طرف لسانها . وبينما هو غارق فى أمانيه إذا بها واقفة إلى جواره دون أن يشعر ، أشاح عنها بنظره خوفاً من نفسه أن تتهمه بتجرؤ وتقحم كاد أن يبتعد عن مكانها لولا أن أحس بأنامل تهز كتفه برقة وتردد ، فالتفت ليراها تنظر إليه ، ظنها تبحث عن شخص تعرفه فأخطاته فتوقع أن تعتذر وتمضى لشأنها ، لكنها ظلت ساكنة لسكونه المرتقب تنتظر رد فعله .فقال لها بجد غالب :

ـ شعرت كأن أحداً مس بأصابعه كتفى فالتفت فلم أجد سواك ، لا أظننى من تبحثين عنه ، فمعذرة.

قالت بعد لحظات صمت كأنها لم تجد ما تقوله أوتحتفظ بسر صوتها :

ـ سبقتنى أناملى إليك ، فهل يا ترى سبقتك عيناك نحوى؟

أعادت إليه تلك الكلمات ـ وقد بدأت بها خطابها ـ ذكرى هذه الليلة فشعر ببعض النشاط ثم عادت عيناه المجهدتان تتابعان سطروها يسبقهما اضطراب فى المشاعر وكدر فى الخواطر كأنما بين سطورها سرها الدفين .. هكذا استرسلت.

" .. هل تذكر هذه الكلمات ؟ إنها أول ما فاه به لسانى أمامك وأصدق ما صدر عن نفسى كما عرفتها فى مختلف الأيام ، لازلت تتصور أن الصدفة هى التى حملتنى إليك يومها وقد جئت أستفسرك عن عدنان ، لكنك لاتعرف أننى ترددت أن أقبل عليك خاصة من بين جميع الأصدقاء . لقد كان مظهرك البسيط بين أبهة الحفل وفخامة المدعوين شيئاً غامضاً ومخيفاً ومثيراً لحيرتى ، قلت لنفسى وصديقك يقدمك لى ، أن انساناً له مثل هذه الشجاعة والثقة ينبغى الحذر فى الاقتراب منه.

ثار التحدى فى أعماقى حين لمحتك منفرداً تهيم ببصرك فى الحاضرين ، لقد أخبرتنى فى صراحة أنك كنت تبحث عنى كأنك فى حلم غريب .. أما ما كنت أحسه لحظتها فهو أننى لن أشغل من اهتمامك لحظة واحدة ، فمن يزدرى المظهر هذا الازدراء لن يشغله ما يشغل الناس . هل تذكر ضحكتك وأنت تخبرنى أنك ترتدى أجمل ما لديك لأنه حفل صديقك ؟ لقد شاهدت فى ضحكتك أسمى شعور بالصداقة وأعظم إدراك لما تخفيه نفسك من مثالية ، كم كانت تلك الأنامل بارعة وهى تستبقنى إليك فتقضى على ترددى ، أما نظرتك الىّ فكانت هائلة لأنها حركت دون أن تدرى جوهر إنسانيتى فاقتربت بغير إرادتى من الإنسانية الراقية فيك . توالت اللقاءات بيننا ونمت عاطفة سامية سرت فى كيانى واضطرمت بها ذاتى كلما طاف بخيالى وجودك ، أدركت حبك لى واضحاً لالبس فيه ، فيا إلهى ما أروع ما أعطيتنى فى لحظة من عمرى لم تتكرر! إننى لم أحبك يا مراد ، فالحب كما أراه فى صديقاتى ينتهى إلى مخدع سواء عن رضى المجتمع أو عن غفلته ، لقد نفرت من نفسى إذ لوثت شفتاى شفتيك اللتين أظنهما ستبقيان دائماً شفتى قديس لولا ماتركته أنا من أثر .. نعم ذلك هو شعورى بك ، أقدسك . عبثا أحاول أن ارتقى إليك ، فكلما دنوت من اللحظة الأولى التى نظرت إلىّ فيها ومست أناملى كتفك ، هوت بى غرائزى إلى خواطر غامضة . أصابنى اضطراب عظيم وأحسست بقوى غامضة تفت فى كيانى وتمزقه ، لقد كان عذابى شديداً . انتبهت بعد حين إلى نفسى متسائلة : ما قيمة حياة أحياها لا ألتقى فيها بك ؟ إذا كان الجسد عائقى اليك فسوف نلتقى فى عالم الأرواح حيث تنصهر روحى فى روحك الخالدة . ألم تلتقى "جولييت" بحبها فى السماء ، حسنا ، إن " روميو" لم يكن لها كما أنت لى فاسمح أن أسبقك

إلى هناك .. ربما كنت هنالك أقرب إليك ، أو لتهدأ نفسى الحزينة المتألمة وتخضع لما خلقت منه وما سيخضع له الجميع يوماً ما.

هل تذكر ذلك المكان الذى صحبتنى إليه مرة وقلت إنه معبدك ، حيث يأسرك الكون بسحره وغموضه ، الذى أعلنت فيه حبك لى ؟ إنه المكان الذى سأبدأ منه رحلتى إليك ، فربما كنت حينئذ أهلا لحبك أو قربانا فى معبدك يذكرك بالعفو والغفران ، لتذكر يا مراد أن أدنى إحساس بالحيرة أسببه لك أو لحظة أسى تمر بك ، لن أغفره لنفسى مهما غفرت لها من آثام ، دعنى آمل أن أستريح من عذابى المرير وأنعم برجاء لقياك فى مكان لايفصلنا عنه سوى حاجز صخرى ، ويفصلنا هو عن حقيقة الأشياء.

ولا أنسى أن أشكرك وفاءك بعهدك أن لم تقرأ سطورى إلا حين آتتك دعوتى إليها من السماء. معبودتك هناء.

ظلت عيناه تحملقان فى رسالتها بذهول وقد توقف عقله عن التفكير لحظة تماثل لحظة الإغماء ثم عصفت به اليقظة المفاجئة وهى تتراءى لخياله جسداً هامداً لا أثر للحياة فيه ، كيف تسلم نفسها للموت بهذا المنطق الضعيف؟ بل كيف تقبل عليه بأى منطق كان ؟ إنها تملك كل مقومات السعادة مهما اختلف عليها الناس ، لديها ما يكفيها من مال وجمال وحب وصحبة ، ثم نظر إلى السطور مرة أخرى وصاح بألم عميق : كيف أكون ذريعتها للموت بأى حال، إن هذا لأقرب للجنون إن لم يكن هو الجنون بعينه ، أتحبنى وأقر بحبها ثم تختلف إحساساتنا هذا الإختلاف ؟ تبحث عن سبيل يقربها مما تراه فلا ترى غير الموت سبيلاً للقياى ؟ يكاد يسلمنى جنونها لجنون مثله.

ثم بدأ يفكر : أنها لم تتوقع أن أقرأ رسالتها قبل أن يصلنى نبأها اليقين ، لذا فربما لازال هناك وقت لمناقشتها فيما عزمت .. كان يمكنها أن تطلعنى عليه من

قبل فأبدد من ذهنها هذا التشويش .. لكن إحتمال أمرها يبدأ من الليلة ، رباه ماذا أستطيع فعله ؟

خطر بباله وقتها أن يهرع إلى هنا فربما لاح له طيفها فى ظلام الليل من بعيد فيحجم به عن عالم غامض مجهول ، لكنه وجم وهى تتراءى له فى مخيلته تسأله: لم أخلفت ما وعدتنى عليه ؟ كيف سوّل لك ضميرك أن تطلع على سر لم يأذن لك به صاحبه ، أذلك ما صورته لى من مثل الإنسان القويم ؟ كيف تستبيح حرمة بغير استئذان ؟ أفزعه ألا يجد جوابا حتى ولو لم تسأله ، لقد خدع نفسه قبل أن يخدع محبوبته ، لكن هل يستسلم لضعفها ويتمادى فى خداعها فيتردد فى الإنطلاق إلى المكان المقترح بتلك الحجة الباهتة؟

ما أن قفز فى ذهنه هذا السؤال حتى أفزعه عن أوهامه المتكالبة فاندفع إلى هنا لم تنتظر الجواب قدماه.

كان الفجر ينسج ثوباً للسماء وهى تنضو عنها ثوبها الأسود الكئيب بما حواه من آثام السكينة والصمت عسى أن ترى العيون ما كانت تتحسسه الأيدى فى خفاء الظلمة المريب ، لم يسأل نفسه وهو يعدو لاهثا ماذا سيفعل لو وجدها وماذا سيفعل لو لم يجدها ، كيف سيفكر فى أى من الحالين ؟ كانت رغبة الوصول هى المسيطرة على كل حواسه كأنما بذلك يفصل فى مسألته المحيرة .. أن ينطلق إلى هنا.

ربما كان إرهاق بدنه وكلال ذهنه سبباً فى استسلامه لقدميه ، لكن هكذا تدفع بالإنسان حيرته وهو صحيح البدن والذهن ما أن يلوح لها طائف نجاة.

شاهد وهو يقترب بضعة رجال واقفين يشيرون بأيديهم نحو الهاوية ويهزون رؤوسهم ، بضعة آخرون يقتربون من المكان فى فضول .. سمع أحدهم يحدّث الآخر إلى جواره :

ـ يقولون أنها من عائلة كبيرة.

هز الآخر رأسه وقال :

ـ فى هذه الأمور تستوى الكبيرة والصغيرة.

قال ثالث :

ـ لايعلم سرها إلا الله ، ليغفر لنا ولها.

قال رابع :

ـ كانت فى أتم زينة، لقد مرت أمامى وأنا جالس على المقهى سبحت ربى لجمالها .. سوف أعيش مائة عام ولا أفهم شيئاً فى هذه الدنيا اللعينة.

التفتوا نحوه وقد لاحظوا أنه ينصت إليهم باهتمام ، فقال بارتباك كأنه ينصت لضميره.

ـ ألم يحاول أحد إنقاذها ؟

لم تصل أذنيه إجابة ما ، فتهالك على مقعد قريب ، وفى شبه إغماءة ذهب عنه الوعى .. قد كان فى هذا نجاء.

نهض بعد حين وقد ذاعت الشمس فى أرجاء الكون ، فاحتمى منها من افزعته وأقبل عليها من أحبته ، تثاقل مراد إلى أى مكان لايدرى أين تضعه قدمه، وعيه لايزال متعثراً فى ظلمات ليلته التى لا يظن لها ندا من نهار.

لقد أوشكت هناء أن تكون نوراً يهتدى به فى أعماق نفسه المجهولة الغامضة فإذا بها تفر بنورها من ظلامه ، تصور لها نفسها فى أعماقها النور الأسمى الذى لن تصل إليه ولن تعرفه فتسلم جسدها للفناء ، راجية لروحها الطهر والنقاء.. أية لعنة تحيط به تحطم من اقتربت منه فى وفاء وإخلاص دون أن تجعل منه لاحقا لسواه ؟ ألم يكن مخلصا وفيا لحبها ، إذن فلم يبتعد عن المكان الذى جعلته

مبدأ لرحلتها الخالدة إليه ؟ أليس من الأحق عليه أن يستمسك بوجوده فيه مهما احترقت فى وجهه الشمس ؟ أليس من الأوجب أن يسرع إليها من نفس الطريق ليلقاها هنالك من وراء ذلك الحاجز البعيد ؟ أم أن إخلاصه لنفسه أقل من إخلاصها هى له ؟ أين ذلك النور الذى بهرها فيه واستعصى عليها أن تمضى نحوه بردائها الدنيوى؟ كيف تسرى روحه بسر لايعرفه وعرفته هناء والتمست طريقها إليه ؟ هل يعقل أن تقضى حياة على حياة؟

تفتتت المعانى فى ذهنه فاستسلم لجزئياتها دون أن يدرى ومضى مع الكلمات المتناثرة التى استحالت بعد قليل حروفا لاتفيده بشئ ، هل يفيده أن يفكر فى الموت والحياة تنبض فيه دون أن يعرف حقيقتها . ربما كانت هناء أصح منه منطقا وأجرأ فى المواجهة ، كيف لاتكون كذلك وقد رأت فيه ما لم يره فى نفسه ومن اللحظة الأولى ؟ نعم لابد أن ما فعلته كان صائباً وهى تنعم الآن بشمس غير محرقة ، لابد أنها فى طريقها إليه كما قررت فى خطابها ، هذا رأيها وهو ما لم يرتأيه أحد غيرها .. رباه هل يصح بالموت معنى للوجود؟

ظلت قدماه تمضيان به دون أن يشعر أنه انتقل من المكان خطوة واحدة ، ربما تفتت المسافات من تحتهما لتتناثر نهاية صغرى تقترب من السكون ـ لكن المنزل الذى تخطاه منذ قليل أشعره بألفة قديمة فانتبه وتذكر انه مسكن صديقه فاتجه إليه دون أن يلمح فرقا بين وجهته الأولى ووجهته الأخيرة.

دق الجرس ففتحت له الباب والدة صاحبه ، نظرت اليه بدهشة ، أنها تعرفه لكن يبدو أنها لاتعرفه ، تتطلع إليه كأنما اختلطت ملامحه ،لم يسألها شيئاً لكنها أجابت ، لقد كان فى عينيه بيان أنه فى حاجة لصديق .. قالت باضطراب

ـ أخشى أن عدنان غير موجود .. لم يعد من العمل بعد ، هل كان يعلم بمجيئك هذه الساعة ؟ أكان بينكما موعد؟

رد بيديه قبل لسانه :

ـ لم يكن يعلم .. لم أكن أنا نفسى أعلم .. أنها ..

ثم توقف فجأة عن الكلام وهز رأسه ومضى وهى تتأمله دون أن تفقه شيئاً.

أفتقد صاحبه فى الوقت الذى رجاه فيه ، أونفرت عنه الصحبة بغير قصد وقد توارى الحب من واقعه بكل يقين ، بدا كأن حوائط ضخمة أحاطت به لا تبتعد عنه ولايقترب منها مهما تلاحقت قدماه ، حوائط من غموض وريبة تتحدى العقل وتنشر فى الشعور الحزن والخوف . ما كان لصاحبه أن يخترقها إليه وهو يظن أن رجاء الساعة هو رجاء الصداقة المخلصة.

ظل مراد هائماً على وجهه ساعات متردداً بين الرمال والصخور والشاطئ الممتد وهو لايكاد يفطن لمرور الزمن ، كانت الشمس قد توارت فى الأفق وخطا الليل خطواته المقبلة، نفسه تراوده أن يستخلص مكاناً ليستريح فأجابها من باطنه على هذا المقعد القريب ، لكن المقعد لم يكن شاغراً كما تصور من بعيد فتخطاه إلى آخر يبعد عنه عدة أمتار ، لم يلحظ أثناء سيره أن عينان كانتا ترقبانه بإهتمام وتتأملان هيئته وملامحه بفضول خاصة وهو يمضى قريباً من صاحبتها.

استسلم لجلسته فى تراخى وقد أمسى ذهنه كصفحة بيضاء لاتستحوذ على شئ من فرط الإرهاق والتعب ، لولا بقية من متانة الجسد لازالت تحفظ بنيانه لخارت قواه.

بعد قليل شعر أن شخصاً أتخذ مجلسه إلى جواره ، لم يكلف نفسه عناء النظر إليه ، ظل مسترخياً فى جلسته ، لكنه تكلف هذا العناء وقد وصله صوته الانثوى.

ـ يبدو أنك الليلة بلامأوى ، لماذا لاتئوى لمسكنى .. إننى لم أرتبط بأحد بعد.

نظر إليها من خلف حزنه وخوفه وعناء ساعاته الماضية فتراءت له امرأة

جربتها الأيام تجربتها العابثة حتى تركت على صوتها نبرات العبث والاستهتار وعلى جسدها علامات الفتنة المصطنعة التى أخفت بحكم الأيدى المتداولة فتنة أصيلة وهبتها اياها السماء ، وقد أرتدت سراويل لاصقة تغلف بها غواية الشيطان.

لم تحتمل إنتظار إجابته أو ظنت أن هذا الفم قد أطبق إلى الأبد ، فعادت تقول بغضب زائف.

ـ لاتحسبنى ملاكاً هبط عليك من سمائك ، أنا لا أظنك قديساً .. فليس هناك مايدعوك لكبرياء . سوف تدفع على كل حال مقابلا لما أقدمه لك.

ثم أضافت بضحكة مفتعلة.

ـ كما أن الجو بارد هذا المساء ولن يصلح الشاطئ مرقداً لك أو مرتعاً لى ، وإن كنت تبدو قوى البنية قادراً على الإحتمال .. هيا إن جفنيك يشكوان السهر، ومعدتى تئن من جوع ، إن مسكنى قريب .

ظل صامتا وكأن أذنيه لم تميزاً من صوتها سوى جرسه الغريب ، لكنها حين نهضت ومدت يدها إليه تمثلت فى وعيه العميق شيئاً يستنقذه من الهاوية فاستجاب على الفور.

كانت تقطن فى أحد الأكواخ البالية المنتشرة فى هذه الناحية من الشاطئ يبدو أن صاحبه قد هجره إلى غير رجعة ، بهذا تنبئ جدرانه المتداعية ونوافذه المهدمة ولونه الباهت الكئيب الذى تفضله الظلمة فتطمسه أبد الليل . أما حجرته الوحيدة فليس بها سوى فراش رث وكرسى متهالك وأريكة لاتبدو فى حالة تسمح باستعمالها ، ويعلو الأرضية فرش حقير لايتميز عنها فى شئ ، لكنه يستكمل للذوق العام فى المسكن طابعه الفقير لو عرف مع الفقر ذوق يفتقد ،

لكن شيئاً فوق الحائط تدلى فى صمت يصرخ فى عينى من ينظر إليه أنه لاينتمى إلى هذا المكان الوضيع .. كان يتدلى عود قديم.

ما أن اقترب مراد من الكرسى حتى مادت به قدماه فخر عليه مستسلما ، ونظر إليها نظرة لامعنى لها ، فقالت وهى ترمقه بيأس تغلبه السخرية.

ـ أليس من الواجب أن نتناول عشاء قبل أن نستسلم للتعب؟

ولما بدا لها أنه لم يفهم سألته بغضب :

ـ لاتقل لى أنك لاتملك نقوداً أيضاً فذلك مالايمكننى أن أوفره لأحد ، كل شئ حولك يعطيك الجواب ، لو كان عندى ما أبيعه ما استنكفت أن أفترش الأرض .. هيا أعطنى ما تبقى فى جيبك مما رزقت به سأبتاع لنا سويا شيئاً نأكله ثم أفعل بعد ذلك ما شئت أو أمرنى حينئذ بما تشاء.

مد يده فى جيبه وقد بدا أنه فهم ما حدثته فيه ، أخرجها ممسكة ببعض قطع النقود فاختطفتها منه على الفور وانطلقت خارجة.

عادت بعد قليل تحمل طعاماً فوجدته غارقاً فى نومه ، فكرت للحظة أن توقظه ثم عدلت عن هذه الفكرة وهى تشهد فى ملامحه علامات الإجهاد ، فالجفنان مطبقان كأنهما يأبيان على العينين أن تشهدا من الحياة يوماً جديداً ، الملل والتراخى ينبئ بهما الوجه وقد حرره النوم من شدة أصر عليها صاحبه وهو يكافح أيامه الماضية ، الفم الذى باهى بكتمانه انفرجت شفتاه قليلاً توحيان للحديث المكتوم إن شاء فليهرب.

ظلت تتأمله ببلاهة كأنما تعرض عيناها لصورة الإنسان الأول فى سالف زمانها ثم هزت يديها من قلة الحيلة واتجهت نحو فراشها.

بعد عدة ساعات انتبه مراد من نومه نتيجة ألم شعر به من جراء جلسته،

طاف بعينيه فى المكان وهو يتذكر ليلته فوقعت عيناه عليها وهى نائمة ، ثم لاحظ العود المدلى فوق الحائط واستغرق فى التفكير . لم يفهم كيف استجابت قدماه لهذا المكان وهو يخمن فيمن تكون صاحبته ، لكنه عاد فاستغرقته خواطره وقد جثم فوق صدره يوماه الماضيان.

سألها فى الصباح وقد تمكنت من إيقاظه :

ـ كيف صحبتنى إلى هنا يا ..

نظرت إليه هادئة وقالت :

ـ دعانى أبى نوال ، أما كيف صحبتك فلا أظنك مراهقاً فى إهاب رجل تلقى بتبعتك على الآخرين . لولا أنك استجبت لدعوتى لأصبحت كما أصبحت الأخرى فى الليلة الماضية فى قاع الهاوية . لابد أنها لم تجد مأوى يئويها على الأرض فآثرت السماء ، هذه كانت حالتك أيضاً حين لمحتك تنظر إلى الصخور فى غموض تشبه هؤلاء الذين يلقون بأنفسهم فى أحضانى بعض لياليهم.

سكتت قليلاً ثم اضافت وهى تضحك باشفاق :

ـ هل تريد الحقيقة ؟ كنت بالأمس جائعة لم أذق شيئاً طوال النهار ، حتى وجدتك فهل كنت ستفيدنى وأنت هنالك بين الصخور ؟

قال مراد وهو يعزم على الذهاب :

ـ لا أعرف إن كان يجب أن أشكرك أو أزجرك.

قالت بحدة :

ـ أنا آويتك وأنت أطعمتنى فليس لك أن تشكر أو تزجر ، لا أحسبنى مصابة بداء حتى تخشانى ، إننى أحيا بشرف كما ربانى والدى رحمه الله.

نظر إليها وشفتاه توشكان أن تنفرجا سخرية ثم تراجع إلى جد واضح وهو يرى جد حديثها واضحاً فى وجهها وقد انقلب غضباً ، كأنما مسها سوء ظن لايغتفر ، تراجع عزم الذهاب فى نفسه خطوة وتقدم الاستغراب والفضول.. ربما استظهر من هذا الكائن أمامه شيئاً يفقه به ما استعصى عليه من مسلك الآخر ، إحساس غامض تخفى من وعيه فى حرص وهو يتلمس طريق النجاة. قال بتردد :

ـ هل تسمحين لى أن أسألك عما تقصدينه بالشرف؟

رنت إليه كأنه يسألها عن شئ يراه كل من له بصر ، ثم قالت متعجبة

ـ ألست تعرف ما أقصده ؟ يبدو أنه شئ لم تعرفه فى أيامك السابقة . كيف كنت تحيا إذن وتكسب قوتك ، هل أنت لص ؟

حيره عدم فهمها مقصده ، أكدت لهجتها صدق ما فاهت به فازدادت الفجوة بينهما وكأن كلا منهما يتحدث بما لا يفهم الآخر .. قال لها بهدوء مصطنع

ـ سألتك عن هذا الشرف الذى رباك أبوك عليه ثم تركك تحيين تلك الحياة، ولازلت تتصورين نفسك مستمسكة به .. بم يفيدك عملى إذن ؟ على كل حال لست لصا وإن كان هذا لايضيرك بشئ.

قالت نوال :

ـ بل ذلك هو عين ما أقصده ! لقد مات أبى وأنا فتاة صغيرة ، لكننى لازلت اذكره وهو يصحبنى معه للمقاهى التى يعزف فيها عوده ، كان يطلب منى الغناء قدر ما أستطيع .. قد كان ذلك أجلب لرضا السامعين ومعه قروشهم ، كان يردد دائماً لابد من أن أعمل مقابل أى قرش أكسبه فلاشرف لإنسان يحيا

عالة على سواه دون أن يفيده بشئ ، وإن كان بضع نغمات مبتذلة ، فهى على كل حال شئ يؤثر فى السامع وإن سبب له الضجر!

لم يجد ما يقوله حين توقفت عن الكلام فقد كان مستغرقاً فى الإنصات اليها فاستأنفت هى بعد فترة صمت.

ـ كان دائماً يوصينى ، "لاتأخذى شيئاً من إنسان بلامقابل فتلك هى العبودية حتى ولو أخذتيه دون علمه ، فحينئذ تفقدين شرفك" لا أظننى أخلفت ما عاهدنى عليه ، فلازلت أحيا بشرف ، لم أستعبد!

قال " مراد " بعد تفكير مضنى :

ـ ألم يناقشك أحد فى حياتك تلك ؟ أعنى من جيرانك أو أقاربك؟

أجابت ببساطة :

ـ ليس لنا أقارب فى هذا البلد فقد نزح بى والدى من مكان بعيد وأنا طفلة، لم يمتد به العمر حتى أصبح فضولية ، كما أنه كان غير محب للحديث، لا أعرف لم يتجنبنى جيرانى ، إننى لم أسبب لأحد منهم أدنى ضرر ، وعلى هذا فكل من يزورنى من أمثالك ممن أصادفهم أو يصادفوننى على الشاطئ ، لايتسع وقتنا حينئذ للحديث.

أضافت بعد لحظة وهى تضحك :

ـ إلا أنت فيبدو أن وقتك لايتسع لغير الحديث.

قال وملامحه المجهدة تعبر عن حيرته ودهشته منها :

ـ ألم تفكرى أبداً فى كلام أبيك هذا ؟

أجابت :

ـ كان أبى رجلا مسنا عرف الحياة أفضل منى فلم أرهق نفسى فى شئ خصنى بخلاصته ، كما أنى أظنه لم يخطئ فيما قال إلا إذا كنت كذبت علّى وأنت بعد لص.

قال وقد ترك العنان لخواطره :

ـ ما قصدته هو أنه ربما فهمت من حديثه شيئاً غير ما أراد ، فلا أحسب أبا يرضى لابنته أن تحيا كما تحيين مهما كانت حكمته وخبرته بالحياة!

أضاف وهى تفكر فيما تسمعه منه :

ـ هو لم يقصد بالتأكيد أن تبيع إبنته نفسها مقابل مال أو طعام وتظل مع ذلك حافظة لشرف الإنسان ، فماذا يتبقى للحرية أو حتى للعبودية إذا أصبح الإنسان سلعة قابلة للمقايضة؟

نظرت إليه متشككة فى حديثه وقالت :

ـ لست أفهم حديثك ، لايجبرنى أحد على شئ لا أريده ، كما أننى لا أنصب للناس فخاخا أوقعهم فيها على حين غرة .. إياك أن تظن ما فعلته معك بالأمس نوعاً من الاحتيال ، فلو رآك الشيطان بعينه لراودته الرحمة فيك ، إننى حقاً كنت جائعة ولم يبد على مظهرك أنك معدم تماماً ، لكن ما بدا عليك من اليأس والإحباط ذكّرنى بتلك الفتاة التى ألقت بنفسها فى الهاوية ، لابد أن ملامحها كانت تشبه ملامحك قبل أن تقفز قفزتها الأخيرة ، فقلت لنفسى لقد أرسلتنى العناية إليه تماماً كما أرسلته لى.

عاد يقول من جديد وهو يغالب ما ذكرته به منذ قليل :

ـ ما أقصده فى حديثى أن المرأة لاتحيا مثل هذه الحياة ولها إختيار ، وإذا أجبرت عليها لاتدعى معها الشرف.

قالت وكلماته تجوب ذهنها باحثة عن معنى :

ـ ماذا تعنى بهذه الحياة التى تؤكد عليها ولم لاتتسم بالشرف ، وأى شرف هذا الذى يشينه أن ينتسب لإنسان لم يضر إنساناً ولم يسلبه حقه فى أن يعيش كما يشاء ؟ إنك لإنسان غريب حقاً ، لم لا ندع هذا الحديث ونذهب إلى الشاطئ أو لتمض إلى حال سبيلك !

ظل صامتا فترة لايعرف كيف يجيبها وهى تنظر إليه شبه مزهوة والإضطراب باد عليه ، تارة يراوده الاشفاق عليها وأخرى يتهم جهلها بما تفعله من تدمير لحياتها فى نظره دون أن يعى شيئاً من تلك الأحاسيس ، كالذى أسلم عقله لعبث الأهواء لايجاد لها فيه . أوشك أن يمضى لحال سبيله كما أشارت وماذا عليه إن كانت راضية مطمئنة لمبدأها فى الحياة ، ثم آب إليه ضميره كيف يتركها تمضى لهاوية يراها حتما عاقبة فلا يحاول تبصرتها وقد أعمتها الأقدار ، بينما هى قد أخذت بيده فى ليلته السابقة ملبية نداء الرحمة والاشفاق أن ينتهى كما انتهت صاحبته من قريب . قال وهو يلحظ السأم قد ران على وجهها :

ـ أتعرفين أن جيرانك يتجنبونك لأنهم يحتقرونك؟

تحولت إليه بحدة وقد أحنقتها كلمته ، لكنها قبل أن تفتح فمها أضاف وهو يقصد تماماً ما يقول :

ـ لأنك تبيعين شرفك فهم يحتقرونك ، أعتقد أن ذلك ما يكنه أى مجتمع لأمثالك.حتى هؤلاء الذين يزورونك من أمثالى كما تدعين لايختلفون فى احساسهم لكنهم يخفونه خادعين أنفسهم وخادعيك .

قال بعد لحظة وهى لاتزال تشعر بالحصر :

ـ إنك تخونين المجتمع فيعاقبك بنبذك وحرمانك؟

قالت بلهفة غاضبة :

ـ لا أفهم كلامك هذا وقد اسرفت فى تقدير صبرى للحديث ، أما إذا تحدثت بتلك الألفاظ المتحذلقة فسوف أسرف فى استخدام لغتى التى أتقنها جيداً ! أنا لايهمنى موقف أحد من الناس نحوى طالما أحفظ عهد أبى.

نظر إليها باستهجان وقال :

ـ هل علمك أبوك مهنة ترزقين منها ؟

أجابت بتأفف :

ـ أخبرتك أنه ذهب وأنا صغيرة ، لكنه كان يصحبنى فى المقاهى أغنى ، فماذا أفعل لكى أحيا من بعده ؟ لقد صحبنى أحدهم لأسبوع وترك لى بضعة جنيهات عشت بها شهراً ثم نفذت ، فلولا أن أقبل علىّ غيره لذهبت أتسول فى الشوارع وهذا ما تجنبه أبى بشيخوخته فهل أرضاه بشبابى ؟ ولم إذن أعطانى الله هذا الجسد إن كان غير قادر على رزق نفسه؟

سألها محاولاً النفاذ إليها من أية ناحية

ـ أتظنين أن الله الذى وهبك جسدك يرضى منك أن تمتهنيه وقد وهبك العقل معه ؟ ألم تعرفى شيئاً عن أى دين؟

قالت :

ـ لا أعرف الشئ الكثير ، هل يعنى الدين أن أهلك جائعة أوأتسول الناس وقد ولدت معدمة لا أهل لى ولاسند؟

ـ لايعنى هذا بالطبع ، لكنه لايعنى أيضاً أن يقترف الإنسان أكبر خطيئة مستسلماً لحجة واهية ، خادعا نفسه بأنه مصون العهد والشرف .. إنك ترتكبين أكبر الرذائل وأنت لاتشعرين.

قالت وقد بدأت تحس خطورة المسألة :

ـ أيمكنك أن تفسر ما تقوله بحيث أفهمه .. إن هذا التهويل الذى تفتعله لا يفيدنى ، لو كنت حريصاً على إفادتى.

نظر إليها مليا يتبين أتسخر به أم أنها بدأت تميل لحديثه حقيقة ، ثم قال:

ـ إنك تؤمنين أن لك روحا لها مطالب عديدة تلبينها كما تلبين مطالب جسدك؟

أجابته :

ـ إذا كان ذلك طبيعيا فلم تسألنى ؟ لم أفكر فى هذا من قبل .

ـ لابد أنك تفكرين فيه وإلا فكيف تحرصين على الوعد وتصونين ـ فى زعمك ـ الشرف ؟إنهما معنيان والروح تختص بالمعنى كما يختص بالمادة الجسد ، تلك حاجتها العالية وهذه حاجته الدنيا.

ـ حسنا ، لقد فهمت هذا .

ـ ولابد أن يغلب الإنسان مطالب روحه على مطلب جسده إذا أراد أن يسمو ويتبوأ مكانة عالية ، أنت نفسك فعلت هذا وإن كنت أخطأت السبيل. لقد كان حرصك دائما ألا تخالفى ما نصحك به والدك ، حقا ضللت معناه لكنك حفظت مبدأه كما وعيته.

قاطعته قائلة:

ـ لكن لم لا يكون ما فعلته أنا هو الصواب ويكون ما فهمته أنت الخطأ؟

قال مراد :

ـ لأن مافعلتيه لايتفق حتى هذه اللحظة مع ما تؤمنين أنت به.

قالت بضجر :

ـ وما دخل جيرانى بهذا ؟ ألست حرة أفعل ما أشاء وأؤمن بما اشاء؟

أجابها :

ـ إن جيرانك هؤلاء يمثلون عيون المجتمع من حولك ، المجتمع حريص أن يكون افراده أصحاء ، لكل منهم شخصيته المحددة على ما تعارف عليه من تقاليد ، كيف يتسنى لكل فرد إسمه المميز إذا اختلط الجميع فلم يعرف لأحد أب أو أم ، ألم تتخيلى مجتمعاً كل نسائه مثلك ، ماذا يميزه عن غيره من الكائنات؟ ستسألين متشككة وما فائدة هذا فأقول لك طالما أن للإنسان عقلا فلابد أن يميز حياته ويعرفها ويرتقى بها عما سواه وإلا فالفناء أولى به.

آوت إلى الصمت بعض حين وقد ارتسم على وجهها التردد والقلق ثم رفعت بصرها إليه وقالت:

ـ إذن فقد عشت كل هذه السنين مكللة بالعار ؟ لا أصدق تلك الغفلة .. من نفسى .. لابد أنك خدعتنى بحديثك ، وزينت لى حقيقته ، إنى رأيت فى عيون جيرانى نظرة احتقار كما وصفت لكنما اعتقدت أنهم يحقدون علىّ جمالى ويأسفون أن يمنحنى الله شيئاً مع الفقر وقلة الحيلة ، أما أنهم يفعلون ذلك خوفاً أن أؤذيهم ورفضاً لوجودى بينهم .. أتظنهم كانوا سيقبلوننى لو أصبحت كواحدة منهن ذات زوج وولد ؟ إن التضحية كتبت على البعض مهما اتخذوا من صور وأنا من هذا البعض .. أو هكذا تبينت فى النهاية . ماذا كان يضير أحدهم أن يحدثنى كما حدثتنى الآن فأشعر حقاً بأهميتى ، وربما أنصتّ إليه وقتها ، لكنهم تجنبونى كأنى مصابة بوباء .. وأرى ـ مع ذلك ـ فى عين كل رجل منهم ألف سهم تخترق ملابسى لو صادفنى فى الطريق ، لا أنكرك إحساسى

بعض الأحيان بالتقزز من نفسى ، وأحياناً يطغى علىّ شعور رهيب بالخوف من الحياة فأفزع باحثة عن أى كائن أرتمى بين ذراعيه أو تحت قدميه ، هل من العدل أن تصمنى الأقدار بما لم أعرفه أو أخطأت فى فهمه ؟ قد كان أهون علىّ أن أمضى فى طريقى غافلة من أن أستنزل على رأسى لعنات السماء ولا أجد موضعا لقدمى فى هذه الدنيا.

قاطعها وقد بدا عليها أنها نسيته من فرط تشتتها وانزعاجها

ـ الأمل لايزال باقيا فى حياة كريمة.

نظرت إليه بإنكسار وقالت :

ـ ألم أخبرك أنى من هؤلاء الذين كتب عليهم التضحية ؟ كيف أحيا وبداخلى هذا الركام الهائل من الغفلة وامتهان النفس ؟ ولو حاولت أن أغير مظهرى!

ـ يمكنك أن تتعلمى أية مهنة سهلة وتحاولين إظهار ما بنفسك من فضيلة ، بهذا يضل عنك ماضيك .. كفرى عن خطاياك.

قالت والألم والضيق يرينان فى وجهها واليأس الممض يطل من عينيها صارخاً فى وجهه :

ـ لا أظن أن حالتى الآن التى وصلت إليها بفضلك تسمح لى بالإستمرار فى سماعك ، لقد فعلت ما أرسلك الحظ من أجله .. بل ما بحثت أنا بنفسى عليه! ألم أمد إليك يدى فى ليلتى ، لكننى يارب كنت أستنقذه وأستخلص معه رمق حياة.

لم يستطع أن يتفوه بكلمة أخرى وقد هاله ما تحرك فيها من قوى نفسية غامضة لم يتصور أبداً أنها تصلح ميدانا لها .. كأنه يشهد بحراً لجيا ، كان منذ لحظة ساكنا يستحى أن يحركه حجر صغير ، جفل أن يرى من نفسه علة لهياجها، إنه ما كان ليؤثر فيها تأثير ذلك الحجر الصغير فى السطح الساكن وقد ظلت

دائماً بغير عمق محسوس ، لابد أنها تلك القوى التى حركت الأمواج فأفزعت الصمت والسكون والأمن الزائف والثقة فى ظواهر الأشياء .. هكذا سكّن من فزعه وهو يقارن صورتها وهى نائمة ينظر إليها من فوق كرسيه وصورتها وهو يتركها ماضياً لحال سبيله ، وهى مستيقظة تنظر إليه من وراء النافذة ، يقظة ترهب أى منام . إن صورتها تطوف بذاكرته الليلة وهو ينتظر تنفيذ حكمه الذى أصدره ، فتجعله يرتعد من وخز الضمير ، يتراءى له شبحه وهو ينسل من بيتها معتقداً أنه قد أدى واجبه ، فيتوارى عنه من ضعف وخجل.. قد كان يبارز إنساناً أعزل وهو مدجج بكل سلاح ثم تركه صريع عثرته ، وهو يظن فوق رأسه أكاليل الغار.

كان قد توجه إلى بيته مثقلاً بهمومه ، وإن كان حديثه مع نوال شغله عنها قليلاً ، لكنه لايزال يهفو لفهم ما حدث وما تبقى له بصيص من نور العقل يقاوم الإرهاق والتعب .. ما أن أوصد باب حجرته حتى أرتمى فوق فراشه لم يستطع جزء من البصيرة أن يصمد للغز الحياة.

استيقظ من مرقده فى الليل على صوت طرقات آتية من مكان قصىّ ، لما أفاق تبين أنها على بابه فنهض مسرعاً وفتحه فوجد صديقه يوشك على الذهاب والتذمر الشديد باد على وجهه لولا إنفراجه قليلاً وهو يرى مراداً أمامه . لكن مراداً لم يغتبط كثيراً لرؤياه ، ربما لأنه كان سبب يقظته التى أعادت إليه حاضره الثقيل وكان متواريا عنه فى طوايا النوم حيث راح يخبط كما يشاء بين أحلامه وأوهامه فلا يطالبه عقله بمنطق فهم ، أو لأنه تذكر حالته حين توجه إليه بالأمس راجياً أن يلقاه ليفضى بمأساته فما وجده ، وأسخطه أن يئوى إليه فى شدته فيحرمه القدر أقدر العقول على إفهامه وتهدئته فى أعسر لغز واجهه وسبّب له الجزع والاضطراب .

ـ كان سيشغله حديث نوال بعض الشئ فإذا بمجيئ "عدنان" يعود به ليلتين، قال له صديقه وهو يرمقه بحذر كأنما حدس ما دار فى نفسه

– كان لابد لى من إيقاظك بعد ما أخبرتنى صاحبة البيت بعودتك ، لقد جئتك مرتين من قبل فلم أجدك ، أين كنت طوال اليومين الماضيين ، لقد أفزعتنى والدتى وهى تخبرنى بحالتك لما حضرت تستفسر عنى ، حاولت الإتصال بك فى العمل فأجابونى بأنك منقطع منذ يومين .. ما معنى كل ذلك؟

تأمله مراد فى شك كأنما هو الذى يسأله علة تخلفه أو يسأله سؤالاً خفيا لايعرف إجابته سواه . قال عدنان وقد هدأ قليلاً

ـ ما سبب الإرهاق البادى على ملامحك .. لاتقل إنك قضيت الليل تقرأ حيثما كنت أو أنك تفكر فى قضية ناقشناها معاً ، أعرفك تؤثر فيك الأفكار تأثيراً غريباً تكاد تسيطر على أفعالك ومشاعرك ، لقد حذرتك من قبل .

قال مراد تدفعه خواطره الدفينة :

ـ ألم تسمع بحادثة الانتحار فى ذلك المكان الموصوم؟

نظر إليه عدنان للحظة ثم أجابه وهو يفكر وقد باغته السؤال :

ـ تقصد حادثة أول أمس بالطبع فالحادثة الأخرى وقعت وأنت نائم .. نعم بالطبع سمعت عنها وأنا الذى كلفت بتحريرها للصحيفة.

نظر إليه الآخر فى قلق وقال:

ـ تقصد أنه وقع حادث إنتحار آخر الليلة؟

أجابه صاحبه بقليل من المبالاة :

ـ واحدة من فتيات الليل .. هؤلاء اللائى يتسكعن على الشاطئ ، ربما علم ذووها بأمرها ففضلت أن تلقى حتفها بيدها خيراً من أيديهم .

ما أن برق فى مخيلة مراد صورة نوال حتى اندفع خارجاً بكل قوته ، لم يمهل نفسه لحظة ترو ، كأنه بسرعته وإن بلغت أقصى ما يتلهف عليه قادر أن يمسك بها قبل أن تهوى على الصخور لو كانت نوال .. بم سيفيده اندفاعه وسرعته ؟ هذا ما لم يفكر فيه أو يعقله ، إنه فى الحقيقة كان يختصر زمناً ستعذبه فيه صورتها باقية أم فانية و ترهبه نفسه بما جناه . أو كأنه بعدوه نحو هذا المكان يأبى أن يكون منتهى ما فعل ! شعر بعذاب الضمير يستشرى فى كيانه بما يلوح له من هول .. نعم بخعت نوال نفسها ، لم تحتمل ما أيقظه فى نفسها من واقع كان غائباً عنها وكانت عنه فى غنى ، إنبعثت من وجدانه صيحات تردد " إنك أنت الفاعل أنت المسئول ، هذا ما أجبت به إنساناً دعاك لينقذك من مدلهم ظنونك وخواطرك .. أغرقته فيها واهماً إنه ناشدك الحياة".

اجتاحه إحساس قوى بأنه المسئول أيضاً عما فعلته بنفسها هناء ، ولولا أنها صادقته وأحبته ما انقطع بها درب الحياة الذى كان يعدها بكل السعادة .. لقد أصابها بلعنته.

عاد إلى حجرته بعد ساعة فوجد "عدنان" غارقاً فى حيرته لايكاد يلمح مما يراه إشارة واضحة ، لم يجد عدنان ما يقوله لصاحبه وهويرى آثار الوجوم والإضطراب أعمق مما كانت إلا أن يسأله فى استحياء.

ـ أكنت تعرف هذه المرأة المسكينة ؟

أجابه وهو يتمزق ألماً :

ـ لم أعرفها لكننى قتلتها .. نعم وقتلت سابقتها ، فلترشد الشرطة إلىّ .. ليحاكمنى المجتمع ، ليقتص منى أبشع قصاص فهو أعدل قصاص.

نظر إليه صاحبه فى ذهول غير مستيقن لما يفهمه من حديثه ، ثم أخذ فى تهدئته وإستمالته حتى قص عليه ما حدث فى أيامه السابقة ، بعد فترة صمت

سادت بينهما إثر ذلك قال عدنان متردداً:

ـ هل تحب أن أناقشك فى هذه المسألة كما هى عادتنا أم أترك ذلك بعض حين لتأخذ قسطاً من الراحة وهدوء الطبع؟

قال مراد وهو يضغط على جبهته بأصابعه :

ـ أنت تعلم أنى لا أستريح وفى عقلى ما يشغله ، لن يريحنى إلا أن أحدد بالضبط ما فعلته وكان سببا فيما حدث، وكيف أصل لذلك بدونك ؟ لو كنت وجدتك صباح أمس ما حدث ذلك .. إنك تشاركنى بعض العبء.

قال عدنان فزعا بعض الشئ :

ـ أنت تعرف أنى أعمل فى الصباح ، ولم نتفق على موعد أو مكان نتقابل فيه ثم أخلفتك ، إن كانت هنالك مسئولية من نوع ما كما تظن فهى لاتقع سوى عليك كلية.

قال مراد بعد قليل :

– لعل مزاجى العام فى هذه الآونة الأخيرة هو الذى دفعنى لمثل تلك التصرفات، لقد غاصت فى نفسى مجموعة من الأفكار والخواطر تفاعلت مع عقلى وخيالى تفاعلا غريباً ، فى هذا تتحمل نصيبك الأكيد.

نظر إليه عدنان بعدم فهم فقال مراد مفسراً له:

ـ ألا تسأل نفسك من أين آتتنى هذه الأفكار .. من الذى أمدنى بكل هذه الكتب التى قرأتها وظل يغتبط بنهمى على مطالعتها ويمتدح لنفسه أنه لايضن بما فى مكتبته على صديق مطلع .. ألم يكن مسلكى منذ سنتين هما عمر صداقتنا أقرب للمألوف وأسهل على الفهم، فهمى أنا على الأقل ، لقد كنت من قبل محبوباً من الناس متآلفاً مع زملائى لا أشعر بينهم بالغربة ولاتتسم نظراتهم إلّى بالغموض والارتياب . كم انطويتُ على نفسى من خوف أن يكون قد أصابنى

مرض لا ألحظه ينفّر الناس منى ، ألم أخبرك بهذا يوماً وظللنا نناقشه حتى أقنعتنى أن سبب ذلك سمو فكرى ومتانة منطقى ونقدى للأمور، مما يظهر ضعف الآخرين أمامى وقلة حيلتهم فيؤثرون الإبتعاد عنى وما أجلبه عليهم من تشوش وإختلاط فى أذهانهم . حتى النكتة أصبحت لا أضحك عليها ولا أفهمها ، قلت لى أنها ضريبة من يفتح بصيرته على الأسمى والأرقى من جوانب الحياة ، لقد صدقتك فى الحقيقة لأننى كنت أجد لذة أكيدة فى متابعة قدرتى على تناول ما يعجز عنه الآخرون ولايطيقونه ، لكن كيف يصل ذلك لحد الوصول بكيان إنسان إلى الإنهيار ؟ لو كنت ذلك الإنسان الذى عرفته وأحببته ما خضت مع "نوال" فى حديث لاتفهمه ، وما قسوت عليها بإطلاعها على ما لم تعرفه هكذا دفعة واحدة.. أو لو أن لى فكراً عالياً كما صدقتك لتبينت على أى نفس تستحوذ هذه المرأة ، كم من الحساسية والشعور فيها ، ما كنت لأرى القبيح فيها دون أن أميز الجميل ، لسرت بها فى طريق الهداية بدلا من الإشارة لطريق مبهم بعيد والهاوية قريبة من قدميها تخفى عنها معالمه ، فشلت فى معرفة صورة شائهة ومن قبلها عجزت أن أفهم صورة متألقة راقية ، كان لها نفس المصير وأنا شاهد تعس ..

قال عدنان وقد تركه يفرغ ما بجوفه :

ـ ألم أخبرك أنك بحاجة للراحة والهدوء ؟ لكننى لن أتركك مع ذلك .. لهذه الأوهام تنميها وتضخمها لتنقلب فى رأسك وخيالك وحوشا كاسرة تحطم ما كنت من قبل تتميز به ، ولازال يمكنك الحفاظ عليه.

حاول مراد أن يتكلم فأشار إليه عدنان بيده وقال :

ـ قبل أن تستأنف هذا الاضطهاد المزمن لنفسك أريد أن أسألك .. هل كنت ستصبح الآن آمن ضميراً وأرضى خلقا ، لو تركت نوال هذه فى حياتها الحقيرة

الشائنة وقد أتاحت لك الأقدار أن تمنحها قليلا من النور فى ظلام ليلها ؟ لابد أنك كنت ستنتهى لحالة من البؤس والعذاب مثل حالتك هذه وأنت تقص علىّ كيف تخليت عنها وهى تتخبط فى أوهامها وكان من واجبك أن تهديها.

قال مراد :

ـ حتى لوصحّ ما قلته لكان فيه بقاؤها .. إذا كنت معذباً فى الحالين بجهل أو غرور فلم تدفع هى الثمن ؟ نعم كان سيتعسنى إذا تركتها لغيّها ، لكنها كانت ستظل باقية لا أتحمل وزرها ، مالى أنا وأخطاء الآخرين أما كانت تكفينى همومى؟

قال عدنان :

ـ ليس هذا ما اهتدينا إليه واعتقدنا فيه .. إن مبدأنا أن نساعد الآخرين ونرشدهم لا أن نتخلى عنهم من خوف أو نفور.

قال مراد محتداً :

ـ هذا ما يسهل عليك كتابته فى مقال أو كتاب ، لايكلفك غير بضعة قطرات من مداد تنثرها على الورق ، لكن أنظر كم يكلف الآخرين تلك الدعوى التى تدعو بها .. هل أحصيت كم إنساناً أثار فيه كلامك هذا فضيلة التعاون والمشاركة دون أن يتطلع فى نهم لما سوف يغنمه؟

ـ إننى يا صديقى مسئول فقط عما اكتبه وليس عما يقرؤه الآخرون ، كما أنه يكفينى أن تكون أنت مثلاً على ما أطمح إليه فى الناس ، وإن كنت لاتزال مستسلمًا لهواجسك .. لقد فعلت ما هو واجب عليك وما يوافق مبدأك الذى اقتنعت به ، فماذا يضيرك أن كانت ألقت بنفسها فى أحضان الموت ؟ وما يدريك أن أحداً لم يلق بها عمداً وأنت هنا سادر فى ضلال مبين ؟

قال مراد متجاهلاً عبارته الأخيرة :

ـ الذى أعرفه أن المبدأ إذا أفقدته التجربة مضمونه وجب إسقاطه كلية من الحسبان، فهل تظننا نعتقد فيما يهلك الآخرين؟

أجابة عدنان غاضباً :

ـ يبدو أنك لم تسمع أبداً عن شهداء المبدأ الذين ضحوا بأرواحهم فى سبيل ما يؤمنون به .. كما أن المبدأ الحقيقى ياسيدى لايتأثر بتطبيق الأفراد ، فربما أخطأهم التقدير أوجهلوا بما وجب عليهم العلم به ، هل يتخلى الناس عن نصرة الحق إذا عموا عنه فى قضية فانتصروا لباطل وصاح أحدهم لندع الأمور كما اتفق لها وأنى لنا تمييز الخطأ من الصواب ؟

قال مراد :

ـ فأنت تقر إذن بأن هنالك خطأ أرتكب اليوم ؟

أجابه عدنان :

ـ نعم هنالك خطأ ارتكب ولكن لن يقر ذلك أبداً انهزام المبدأ ، وإذا أصررت على ذلك فإنى أصرّ أيضاً أنك فعلت الصواب.

سكت مراد فقال عدنان وهو ينظر إليه نظرة نفوذ :

ـ ربما كان خطؤك الوحيد أنك تركتها بسرعة.

رفع مراد رأسه إليه وكأنه تنبه لأمر خفى عنه ، فاستأنف عدنان وهو يلحظ قبوله لمنطقه :

ـ نعم ، لم تقدّر كيف سيكون رد فعلها ، بم ستحدثها نفسها ، هل ستتمكن من فهم واقعها الجديد ، لو انتظرت يوماً إلى جانبها أو بعض يوم محاولاً أن تساعدها فى رأب ما تصدع من كيانها لأمكنها أن تبدأ فى النهوض من جديد، أو حتى تعدها بموعد لاحق .. لكن ما فهمته من حديثك أنك انطلقت من حجرتها كأنك أديت ما يريحك أبد الدهر .. هل سمعت عن طبيب أفضى

لمريض بوبال مرضه ثم تركه وانصرف ؟ إنى أشك فى أن تكون أخبرتها بعنوان بيتك.

قال مراد معارضاً:

ـ لقد أخبرتها أنها قادرة أن تبدأ حياتها من جديد ، كان يمكنها أن تتعلم مهنة وتحيا بها ، وتفصل عن ذاكرتها ماضيها ، هذا ما قلته لها حقيقة .. لا أظننى هذا الطبيب بل لا أظن لطبيب هذا المثل .

ـ أرأيت ؟! إنك فعلت ما لمتنى عليه منذ لحظات .. استخدمت الكلام ، بضع كلمات من فمك ظننت أنك أنقذت نفساً ، هل عّرفتها أية مهنة تناسبها أو ساعدتها لمعرفة الطريق ؟ هل وعدتها بتوصية لدى صديق ؟ إنك لم تخلق فيها أملا حقيقيا ياصديقى بينما انتزعت منها شعوراً أكيداً بالأمان ، وإن كان خادعاً.

ـ إنى لم أكن وقتها فى حالة مرضية ، ألم أخبرك كيف صحبتنى لحجرتها وما كانت تفكر فيه وهى تراقبنى من بعيد ؟ كيف أكون موحيا بأمل جفت منه نفسى لحظتها ؟ من الغريب أنى استطعت أن أجنبها هول اليأس الذى كان يرين على قلبى ، أما أن أخلق فيها الأمل فلا أظننى كنت قادراً على فعل مستحيل.

ـ ها أنت أقررت بأن العلة منك أنت وليست فى مبدأ أو قيمة نعتقد فيها . إذا لم تكن قادراً على العطاء فلايحق لك أن تبسط يدك واعداً ببركة السماء.

غمغم مراد :

ـ لقد أدركت أنى لن أقوى على الدفاع عن نفسى .. أنى أشعر فى أعماقى بالذنب

قال عدنان محتجا عليه:

ـ إذا كنت تقصد " نوال" فأنا موقن بأنك لست سببا فى موتها ، لقد أهلكت هى نفسها ، لكن ما عنيته بكلامى عن تبعتك تجاهها هو محاسبتك أنت أمام

نفسك ، إذا كنت قد فعلت الصواب .. وهذا لايتضمن مطلقاً مشاركتك فيما اقترفته.

قال مراد فى شك واضح :

ـ لست أفهم .

قال عدنان موضحاً وزهو يتراقص فى أعماقه :

ـ المرء يحاسب نفسه دائماً ليقترب من مثله الأعلى فى ثبات ، ربما اتهم نفسه فيما يتراءى للناس سؤددا ومجداً لأنه يعرف فى باطنه كيف أتاه ، وبالمثل يهنئ نفسه عما قد يعيبه عليه من حوله .. هذا لايعنى مطلقاً أن يحمل الإنسان وزر الآخرين .

سكت قليلاً يلملم خواطره ثم استأنف ومراد ينصت باهتمام :

ـ فلو أنك كما قلت كنت فى حالة مرضية لاختلف مسلكك نحوها منذ البداية ، ربما صرفتها عنك ساخراً أو انتهرتها غاضباً ، أور بما لم تقبل عليك هى فى فضول .. ولاأحسبك تسلم نفسك فى لياليك إلى نساء الليل.

قاطعه مراد :

ـ ولم لا تقول أننى كنت سأساعدها كما يجب وأمنحها الأمل الحقيقى كما أشرت ؟

أجابه صاحبه :

ـ هذا بالضبط ما أردت سماعه منك ، فلو أنك فهمت بدقة طبيعة علاقتك مع " هناء" وتمكنت من السيطرة عليها منذ البداية .. أو لو أن انتحارها المفاجئ لك لم يحيطك بهذا الغبار المضلل ولم ينطبع فى ذهنك كلغز مذهل محير ، لو لم يحدث ذلك ، لاحتملت تلك الصدمة وامتصت حواسك نتائجها ووعيت واقعك جيداً . أوشك أن أقول أن مسلكك كله بعد هذه الحادثة لم يكن معقولاً

لك ، وما كان يمكن أن يكون ولو غيرت ما حدث ! أن عقلك وقد أدرك عجزه فى هذه المسألة ظل شاعراً بالعجز من بعدها فلم يساوق انفعالاتك الجامحة.

قال مراد وقد برزت له صورة هناء حين رآها فى المرة الآخيرة .. وجها غامضاً تستعصى على أى تفسير وحديثها الغريب يجوب صداه أذنيه :

ـ وأين لإنسان ما يعقلها به ، لقد كانت فى هذا اليوم طلسما . كم من لحظات ثقيلة مرت بى بعد ذهابها تمنيت أن أفهم ما قالته وإن ذهب عمرى فداء .. كيف تحبنى ثم تقدسنى ثم لاتجد تعبيراً عن هذا الحب وذاك التقديس إلاأن تلقانى فى عالم الروح المغيب ؟ أفى هذا من العقل ما تلمح؟

قال عدنان :

ـ إننى لا أنكر بالطبع ـ ما شعرت به من مفاجأة حين نما إلىّ خبرها الأليم ، لكن لما خفت إحساس المفاجأة تبينت أن تلك النهاية لاتتناقض مع ما عرفته فى شخصيتها كثير من الأمور التى تفاجئنا لانجد للدهشة منها مبرراً كافياً حين يزول عنا الشعور بالمفاجأة.

نظر إليه مراد مستنكراً وقال :

ـ لا أستغرب منك أن تجد تعليلا للشمس إذا أشرقت من مغربها وتقول أنه معقول .. لا أظن أن أحداً عرف هناء كما عرفتها ، لقد كانت تسر إلىّ بأخص ما بنفسها ، ويشف كيانها فى عينى عن جوهرها النقى الفريد .. فكيف لايصعقنى منها هذا التدبير ، هل تدعى أنك عرفتها أعمق وأصدق منى ؟ إذن لابد أن يهلكك هلاكها !

قال عدنان فى ثقة :

ـ لقد غرك يا صديقى رقتها وفيض مشاعرها كما خدع غيرك جمال صورتها وانبهر بها .. إن أحداً لم يعرفها كما عرفتها مغرقة فى الخيال والوهم سادرة فى

أحلامها الغريبة ، كم تحدثت إليها من قبل أن تعرفها أو تلتقى بها ، كانت تتهمنى بالنفعية والنفاق فيما أكتب ، عبثاً حاولت أن أدير عينى رأسها إلى الواقع لتفهم طبيعة الحياة التى تحياها وما يجب علينا أن نفعله لنعيش ، أننا لم نخلق لنصلح ما فسد وأن كل ما يقدر عليه مثلى أن يكتب كما ينتظر منه المجتمع ، لا أن يعارض قيمه ومثله فيذوى وتلفظه الصحف والمجلات بلامعين أو نصير ، كانت تنظر الىّ فى شك وتقول أنها ستلتقى يوماً بشخص تتمثل فيه ما تراه واجباً فى كيان البشر ، إنسان ستهيم به كما تنتظر من روحها ، وسوف يتحقق فى يسر من صدق شعورها ـ أتدرى يا مراد .. لقد كان حديثها يسلبنى إرادتى للحظات ، وما أن أفيق إليها حتى أفزع متشبثاً بالواقع خوفاً من أن تسلبنى إرادتى إلى الأبد . كان أعظم ما يهزنى فيها برهان صدقها من ملامحها وكيانها.

صمت قليلاً ثم استأنف والآخر ينصت إليه بذهول

ـ كنت أفكر فى حديثها حين أخلو لنفسى ثم أتساءل ، ما الذى يدهشنى فيه، أنها أنثى فى غنى تام عن كل ما يسعى إليه الآخرون جاهدين .. جمال ومال وعائلة ورغبات تلبى على الفور ، فإلى أى شئ تهفو نفسها إن لم يكن للغريب الشاذ الذى لا ينتبه إليه مثلى ومثلك ولايفهمه ؟ خاصة وقد منحتها الطبيعة مشاعر مرهفة وذكاء عجيب، من الطبيعى أن تفتش فى الحياة عمن ليس موجوداً بين أبنائها ثم تتطلع إلى السماء .. لتعرف أن الحاجة تحفظ على الإنسان وجوده وإيمانه بالحياة يا صاحبى.

قال مراد وقد رابه شئ ما

ـ لم تخبرنى من قبل عن إهتمامك بها فى وقت من الأوقات ، بل كان مسلكك يوم عرّفتنى عليها يدل على مجاملة ظاهرة كأنك دعوتها بحكم العرف والذوق.

قال عدنان وصاحبه يتفرسه :

ـ لو كنت تخالط الناس كثيراً كما أفعل لعرفت كيف يتخفى المرء وراء ما شاء من أقنعة .. أن أحداً ياصديقى لا يرى مثل جمالها ثم لا يفتن به إلا أن يكون جاهلاً مغروراً ، ألم تلحظ الملتفين حولها بعيونهم وقلوبهم ؟ كم عجبت حين سعت الىّ تسألنى عنك وأنت واقف بعيداً كالغريب التائه بين قوم لاينتمى إليهم ، معذرة فقد كانت هيئتك تنبئ بذلك.. لكنها لم تلتفت لسواك!

قال مراد متسائلاً :

ـ هل أحببتها ؟

أجاب عدنان :

إن مثلى لايقدر على حب مثلها من أية ناحية ، هذا ما تأكدت منه حقيقة .. ولامثلك يستطيع!

قال مراد مأخوذاً بتصريح صاحبه :

ـ أتنكر علّى حبى لها وقد أزهقت نفسها تقرباً منى ، أم ظننت أنى خدعتها ؟ ومن يقدر على خداع مشاعرها النقية .. والله ولا الشيطان نفسه.

صمت عدنان يفكر ثم قال مؤكداً :

ـ أما هى فقد أحبتك على طريقتها وأنت لم تفهم شيئاً منذ البداية.

لم يمنح صاحبه وقتاً ليتدبر قوله وإنما استأنف فى ثقة :

ـ لا يحب الإنسان من لم يفهم ، سمه إعجاباً زائداً أو افتتانا فائقاً أو نوعاً من الاستجابة لاقبالها عليك ، أنت الذى لاتملك مما تملكه هى شيئاً.

بدأ مراد يلمح فى ثنايا حديث صاحبه ما استفزه وأثار انتباهه ، أنه حتى هذه اللحظة لم يخالجه أى شك فى إخلاصه له وائتمانه على ما يسره إليه ، هكذا أشهد حياته عليه وهو يهديه لدروب العلم والمعرفة وينشر أمامه نظريات الأخلاق.

كان يقينه أن من يمتلك مكتبته الواسعة فى عقله ولسانه حرىّ أن يؤتمن على

كل حياته .. ما بخل عليه منذ عرفه بشئ يضيئ له ظلمة ويهديه من ضلالة، نصحه حين استنصحه ، أعانه لما استعان به ، بل أكد له فى مرة أن بأعماقه كاتباً موهوباً ما عليه إلاأن يفتش فى ذاته ويصقل موهبتها ، فهل قصد من هذا كله مجرد فكرة يختبرها وقد واتته المصادفة بعناصر تجربتها ؟ ثم يلفظها بعد قليل كما يلفظ الخاطر المتهالك .. أم أنه دائماً كان يدرك بالضبط قيمة هذا الصاحب الذى ألزم نفسه به ؟ لم يلح فى حديثه عن هناء أن بينها وبينه بونا شاسعاً .. هى تملك كل شئ وأنا لا أملك شيئاً ، كيف ينسى أعتقاده بقيمة الإنسان الذهنية والروحية ، أن مقياس الثروة الوحيد بين البشر هو مقياس النفس قوية مريدة خيرة ؟ أنه استكثر فى نفسه أن تقبل عليه وقد زهدت فيمن حولها وهو منهم ويعرفها وتعرفه؟

قال مراد وقد أثرت خواطره على مشاعره نحو صاحبه فأيقظت فيه الحذر :

ـ نعم لا أملك شيئاً مما زهدت هى فيه !

نظر إليه عدنان يفهم من ملامحه ما غاب عنه فى كلامه ثم قال بهدوء :

ـ لقد كانت كما سمعت عنها ـ تفشل فى مصادقة زميلاتها بالمدرسة مع أنها أبعد ما تكون عن الإنطوائية والإنفراد..

قاطعه مراد وقد بدا أنه لم يكن ينصت إليه :

ـ لا أفهم لم يصعب على من مثلك أن يحبها ، كيف تأكدت من هذا ؟

قا ل عدنان وقد استاء من قطعه لحديثه :

ـ لأن لاشيئاً فى أحدنا يكافئ مثيله لدى الآخر ، الحب الذى لايقوم على التكافؤ فى المزايا والعيوب ـ فى نظرى ـ غير قابل للوجود .. هى ذات مال وجمال وعائلة ولا أنافسها فى شئ من هذا .. أنا ذو موهبة وهى لاتملك فى هذا الشأن ما أملك .. فعلى أى وجه نلتقى؟

ثم أضاف بعد صمت قصير وهو يتحاشى عينى صاحبه :

ـ فهل تخبرنى فى أية ناحية تكافئك أو تكافئها ؟

لم يكن ذهن مراد يعمل بنفس نشاط ذهن صاحبه ، فلاذ بالسكوت والآخر يستأنف بحمية.

ـ فأنت حقيقة لم تحبها ، لأن ذلك غير ممكن الحدوث .. أما هى فعلى طريقتها أحبتك، أعنى تلك الطريقة الغامضة التى أقرب ما تكون إلى الخلل النفسى. لقد كنت الشخص الوحيد الذى صادفته فى حياتها ووجدت فيه معظم ما يثير جوانحها ... ما يسترسل به لسانك مما أطلقته الكتب فى مخيلتك بوعى أو بغير وعى مما حرك أفكارها . وتظل الأوهام تتراكم والفروض الغريبة تتلاحق لينتج أسخف وهم وأضعف برهان .. أنها أحبتك ولم تستطع الوصول إليك فاتخذت طريقا من عند الصخور .. وتصدق أوهامها ، وليس هذا ايضاً بغريب فهى أحق بالتصديق من أوضح حقيقة تشير إليك فى صمت.

أفاق مراد من أفكاره المتضاربة المتصارعة وكلام محدثه يصلصل فى أعماق نفسه فيصيب أذنيه بالعجز .. دون أن يفقده السمع . إنه عجز التمييز بين صوت يحدثه اللسان وصوت يحدثه الضمير والوجدان ، كلام صاحبه تؤكده أيامه ولياليه ، تبرهن عليه حجرته وثيابه ، تفصح عنه أحواله البادية لكل عين .. لكنه ليس صادقاً فى أية كلمة فاه بها ، إن هناء أحبته حبا راقياً .. إنها قدسته كما عبرت فى نقاء وطهر ، لم يكن خللا نفسياً تلك العاطفة التى تحركت فى وجدانها .. لقد نظرت فرأت بروحها روحاً راقياً وإن موهتها الأيام ، كفاها غنى المشاعر والأحاسيس ، حين التقت بالإنسان خالياً من أربطته الخادعة . هذا ما هيأ لها الحب وإن كانت أفاضت فيه ، وحين اطمأن لسريرتها وآمن لحبها لم يكن خادعاً لنفسه مصدقاً لوهم ، ما كان كلاماً قرأه ما أفصح به لسانه ، إنما تحدثت نفسه عما

تعرفه عن يقين ، إنه أحب هناء كما أحبته وأن أسرفت .. يشهد بهذا كل ما سمعه منها وما أفصحت عنه ملامحها وأيدته تصرفاتها ، يشهد به نفس كلام صاحبه لو وعى قوله وأخلص فى قرارته .. يشهد به موتها ، وانتفض فجأة مما أذهل " عدنان" وحرك فى نفسه بعض شفقة .. ثم قال وهو يكظم نفسه .

ـ أنت يا عدنان ترهبنى بهذا الحديث ، تهدد مشاعرى ، بل وتتهمنى بأفظع مما أظننى قادراً على فعله ولو ساندتنى الشياطين .. تقرر فى بساطة أن إنساناً راقياً قدم روحه قربانا لإنسان استيقن فيه من مثله الأعلى ، وإذا بالمثل الأعلى المرنو إليه عن يقين يضمحل إلى عوز ، وتنتهى المشاعر السامية لكون فسيح لايتسع لومضة أمل فى إرتقاء . تتهمنى بأنى لا أصلح عزاء لإنسان فى حياته ومثواه. والله إن ما بقلبى من حب لها يشفى صدور البشر أجمعين .. فهل تظن الكراهية هى بلسم الحياة؟

لم ينتظر من مستمعه إجابة ، بل ظل يقول والآخر مطأطئ الرأس مثبتا نظره فى أرضية الحجرة ..

ـ لقد راودتنى فيك الظنون من قبل فنهرتها وبددتها ، لكنك كنت تمدها دائماً بعلة الظهور ، فكلما حدثتك عنها وماتظهره لى من مودة وحرص ، ما أكتشف فيها من سجايا وخصال عالية ، أجدك تسعى لتشويه كل شئ بصمتك عن الكلام أو بحديث مختلف يثير فى النفس يأساً وإحباطاً . حاولت أن أقنع نفسى بأن هذا المسلك لايعنى سوى الإعراض عن المسائل الخاصة إلى القضايا العامة التى تشغلنا .. وكانت تريحنى قليلاً هذه المحاولة ، لكننى وقد أصبحت وحيداً بدونها واضمحلت تلك السعادة التى كنت أشعر بها لجانبها ، أرى فى وضوح أن محاولتى تلك كانت بسيطة ساذجة لأننى تصورت أن ما تحرك فى نفسك حينها ورأيته بمشاعرى فى وضوح يمكن أن ينعدم بمجرد إخفائه عن

مدى رؤيتى .. كنت أشعر بشئ بغيض يتحرك فى داخلك كلما لاح طيفها .. كانت الكراهية ، شيئاً فشيئاً استسلمت لها ، كان لازما أن أمسى معها فى لحظة موضوعاً لهذا الشعور فيك..

رفع عدنان بصره إليه ، ملامحه تلوح فى هذه اللحظة بقليل من السخرية ومراد مستمر فى الحديث دون أن يلتفت إليه

- اين توارت مبادئ الحب التى حدثتنى عنها حديث العارفين ، تلك الدعوى المؤكدة التى آمنا بها واتخذناها رسالة المستقبل ؟ ما معنى أشياء اتسمت بالنبل والسماحة والايثار والرحمة؟ لقد قذفت فى قلبى بما يخالف ما أنصت به إليك ليالى طويلة ، كان شيئاً هائلاً أن أواجه كراهيتك لى ، أما أن أبحث عن سر ذلك فهو ما يعزب عن احتمالى وتصورى ، هل أحتمل أن يستكثر علّى إنسان حباً حقيقياً ؟ ومن يكون هذا الإنسان ؟ إذا استعصى على نفسه قبول ذلك وهو حقيقة ماثلة ، انزوى يهتك جمالها ويفسد مقوماتها ، فهى مرض وفى نفسها خلل ومن نفسى تصديق أوهام. ثم تلقى بشباكك القوية على عقلى فتحيرنى بين مبدأ وتجربة أيهما أحق بالتصديق لكى تنتصر دائماً كالرياضى البارع وربما لم يكن لمسألته أى معنى فى الوجود . أهذا ما ينتهى إليه شقاء أيامى؟

أمسك برأسه بين يديه من ضيق ، عيناه تتجنبان النظر إلى جليسه ، أو هما لاتبصران إلا ما بداخله ، ظلا صامتين فترة ثم قال عدنان فى هدوء

- من الحكمة أن أجد لك عذراً من حالتك فى هذا الذى أفضت فيه ، إن إنساناً كان يتهم نفسه بالقتل منذ قليل لايصعب عليه أن يحاكم امرءاً بأية تهمة يشاء ، حتى وإن كان هذا الذى أحسن صنعاً إليه . إنك تتصور يا مراد إنى شعرت بالغيرة منك إذ أقبلت عليك هذه الفتاة الحمقاء ، أننى لا أنكر أن ذلك فى البداية أثار دهشتى لكنه أكد ما وصفته بها منذ قليل ، أن الحياة لاتمنح

الكائن كل شئ ، فهل كانت ستمنحها مع كل ذلك عقلا مدركاً مميزاً ؟ وحتى لاتخطئ فهمى مرة ثانية، فمصدر حماقتها ـ كما أري ـ لايكمن فى ميلها اليك أنت بالذات أو إعراضها عنى، وإنما ـ يقينا ـ فى تقديرها للناس . كلما تذكرت كلماتها وهى تطلب منى أن أقدمك إليها دهشت .. من أين أتت بهذا التخريج الباهر لشخصيتك وهى بعد لم تعرفك ..وتقول ضاحكة : " ملامحه تدلنى على كذا وكذا ، مما لا أعرفه أنا شخصياً فيك. كان فى خيالها صورة شاردة كنت أكثرنا ملائمة لها بحكم المصادفة .. هكذا تحركت فيها العاطفة التى خدعتك عن حقيقتها فاستجبت لها بكل قوتك ، ثم صورت منك قديسا لاارتقاء إليه إلا بالتضحية والاستشهاد ، أذلك منطق يقبله عقلك . أثمة ما يوحى بدوافع غيرة وحسد؟

رمق صاحبه متسائلاً نظرته توحى بثقة الإجابة بالنفى ، ثم استأنف يقول ـ وتتمهنى بالكراهية لك ولها من قبل ، فهل سألت نفسك إن كان هذا رأيى فى المسألة أو إحساسى بها لأى سبب ينشأ هذا الشعور البغيض ؟ الإنسان يا صديقى يكره ما يخشاه ، ولست أخشى ما أعرفه فأين الكراهية ؟ لقد أصدقتك القول أن المبدأ حق لكن الإنسان هو الذى يحّرفه تارة بمشاعره الملوثة وتارة بمسلكه المشوش ، لكنه يبقى دائما المقياس لكل شخصية والحد لأى نمط من أنماط الناس . فإن كنت من المؤمنين حقاً بمبادئهم فحاكم نفسك إليها وأحتكم بها .. حينئذ تكون قاضيك أن كنت خالص الضمير ، لن يتهمك أحد بجريرة لم ترتكبها ، لك أن تمنح ضميرك راحة البرءاء إن شئت أن تسلم ما بيدك.

قال مراد وهو يتشبث بادعائه:

ـ هل أنت واثق حقا أن الخشية هى سبب الكراهية ، أنه لم يكن هنالك ما تخشاه ؟ ألم تخش أن تعذبك نفسك إذ إنصرفت عنك تلك الروح المتألقة

فألبست عليها دعوى الحماقة لتستخف بشأنها وتنجو من التأنيب .. قد كان ذلك حريا أن يكشف جوانب الضعف فيك فتنهار .. ألا يخشى الإنسان من انهيار ؟ ويكره حينئذ ما يدل عليه وإن خفى؟

ثم أضاف وهو يستجمع شجاعته :

ـ ألم تخش أن تخبرنى هناء بأنك عرضت عليها صداقتك وحبك وأنت تعلم ما بينى وبينها فصدفت عنك وأعرضت ، ثم رجوتها أن تخفى عنى ذلك وقد نبّهتك ، مدعيا أنك لم تكن تعلم وأننى لم أخبرك به ، ألم يكن ذلك كافياً لتمقتنى وقد كنت لى ولى النعم؟

التفت عدنان إليه بقوة وقد تجهم وجهه واكفهر واستعصى عليه الكلام للحظات ثم قال بغضب :

ـ لقد أفصحت لها عن مشاعرى بصدق وليس فى هذا ما يعيب ، فلما رفضت رجوتها ما رجوتها حفظا لمشاعرك أنت ، هل كان يليق بها أن تخبرك بأمر كهذا ؟

قال مراد :

ـ يعيب الإنسان خواطره المريضة وخياله الكذب ، لو كنت حقا تحفظ لصاحبك حضوره ما فعلت ذلك منذ البداية وما ورطت نفسك..

ثم أضاف:

ـ أخبرتنى بذلك عرضا وهى تحدثنى عن حبها للبشر أجمعين وتمنيها أن يبادلها الجميع حبا بحب حتى هذا الذى خان صديقه مشاعره .. كانت تتوق لحياة سامية وتتمثل كونا أصبحت تنتمى إليه.

قال عدنان وقد بدا متضايقاً :

ـ لديك نزعة إيلام النفس ، أعتقد أن من واجب الإنسان نحو ذاته أن يقيها غوائل الضعف والألم .. إنك ياصاحبى لاتفهم الدنيا كما يجب ولن تفهمها بهذه

النظرة الواهمة ، ولتتهمنى بما يتراءى لك .. لأكن كارهاً لها كما بينت ولنسمّ ما نشأ بينكما حبا ، فهل آذيتها كما فعلت أنت ؟ لقد حفظتها كراهيتى وأهلكها حبك ، وتبا لمشاعر إنسان وقودها حياة نابضة.

غمغم مراد :

ـ بل تباً لحياة وقودها مشاعر البشر ، لم أكن أحسب جوفك بهذه الوحشة والكآبة ،كلما توغلت فيه فاح الفساد . كيف أخفيت نفسك بهذه المهارة فلم أعرفك سوى هذه الليلة ؟ أأنت عدنان الذى قال لى يوما ما سنمضى معا مصلحين ما أفسده الآخرون من أخلاق ومثل .. أذلك..

قاطعه عدنان محنقا:

ـ كان حتما ألا ترى غير العتمة والدجى وقد احتجزت نظرك خلف منظار أسود ، هل يسمع إنسان لصديق وقد تهدمت فى وعيه معانيه ؟ أن الغم والأسى قد أطبقا عليك فلله أمرك!

لم يكن لكلمات عدنان الأخيرة أى صدى فى نفس مستمعه إن كان قد ميزها بمدلولها إنما كان يسمعه بلهجته ونبرته فذلك ما يحمل له معناها الوحيد لديه ، لم تكن تعنى سوى الخداع والزيف.

قال وأيامه الثلاثة تجثم على وعيه:

ـ توجهت إليك متمثلاً فيك السند الباقى فأنت خير من فهمنى وما أخفيت عنك من شئ .. هكذا توهمت ، أى ضيق حاصرنى وأنا أمضى عن بابك مخذولاً . الآن يحسن فى ادراكى ما فعلت ، فحديث المرأة المسكينة كان أصدق وأحق .. مدت إلىّ يدها تدعونى لصحبة جزاء لقيمات هى أحوج إليها أعظم من حاجتك لنماذج من البشر تستعرضها بثقة .. المعرفة لا شأن لها بالحب ولاتوفر لصحبة

الإنسان أماناً كما يعرف العارفون ، الصديق مهما جهل لخير ألف مرة من عدو ، فتلك قيمة الإنسان إن شاء أن يتميز فى حياته ..ليصدق أولاً ويصادق ثم ليعرف بعد ذلك ما شاء.

نهض عدنان من مجلسه ونظر إلى مراد كأنه حائر ماذا سيفعل ثم تحول إلى الباب وخطا خطوتين ثم التفت وقال:

ـ أظننى صدقت فيها أعرفه عهداً للصداقة ، فوقفت إلى جوارك فى محنتك أشير إلى ما لم تلحظه عيناك الغضبيان الحزينتان ، أجلو لك ما توهمت أنك رأيت ، حاولت أن أهز رأسك قدر ما أستطيع ، كنت عادلاً معك فبرأتك مما اتهمت به نفسك وبينت لك موضع الخطأ ، ربما أدلّ عليك بأنى أعنتك منذ البداية ، لولا هذا ما حرصت على ما قدمت يداى أن يفسد ، لولا هذا أيضاً لبرأت سمعى وحفظت ذاكرتى من اتهام شنيع .. لا أظننى سأنتظرك يوماً صوتاً أو ذكرى صديق.

مضى عنه بجسده بعد أن تلاشى مضمونه فى نفسه منذ دقائق ، كان قد تبقى لنظره شبح إنسان يشاركه حجرته بعد أن أطبقت الوحدة على جوارحه كلها، الآن تحقق للنظر ما تحقق لكل الحواس ، أنه وحيد غريب فى هذه الحجرة الموحشة من هذا الكون الكئيب . لم يعى كيف خرج عدنان ، فقد شعر بأنه تسرب من جدران الحجرة كما تتوارى الأشباح . أهلكت أحزانه قواه فقهره النوم . ومضى هو الآخر إلى عالم يشبه صاحبه حيث تستجيب الأشياء بلا مقاومة لأنها لاتتصف بوجود.

تحول هذا الحيز الصغير الذى تشغله رأسه إلى ساحة هائجة مضطربة متقلبة الأحداث ، يبرز فيها ألف شكل ويفنى فى آن مخلفا ماشئت من أحاسيس مصطخبة عارمة تهز الكيان .. لولا أنه لم يتبق فيه من قوة تدفعه لليقظة .. لولا

أن اليقظة لن تمنحه عالما أفضل من هذا العالم المعدوم . اصطدمت الصخور القاسية ببشرة ملساء حانية فتفجرت أمواج حمراء ، اصطفت الرؤوس ترسل بنظر منبهر لظاهرة فريدة كأنها بركان .. كل الوجوه متشابهة ، كل الملامح متآلفة وعلى الأفواه ابتسامة غامضة ، كيف أصبح عدنان كل هؤلاء الناس ، ذلك العود المعلق فوق الحائط كيف يقترب منه بغير قوة تحركه ، بل هو يتحرك بحائطه . بل كل الحوائط تتحرك فى إتجاه واحد إلى حيث يرقد فى ثبات ، هل ستنقذه حركاته العشوائية من اختناق ، تلك الصيحة الحبيسة فى جوفه أى أذن ستتلقاها ملبية ، هذا الخوف الجاثم فوق أنفاسه من ينتشله من براثنه ؟ هل هو الوجه الذى شوهته الصخور أم اليد التى كانت تحنو عليه من قديم ؟ أم ذلك الطريق الذى أمتد فجأة أمام بصره فهرع يجرى فيه ليجده بلانهاية لأنه لم يقطع خطوة فيه!

ظلت كوابيسه تلاحقه وتحيط به حتى لم تجد فيه بقية لانهاك فدعته لنوم عميق أمتد ساعات النهار ، لم يوقظه منه غير صداع هائل اليم فنهض ضاغطاً براحتيه على جانبى رأسه مسرعاً لاعداد كوب من القهوة القوية يخفف عنه آلام اليقظة.

استرد بعد حين نشاط ذهنه ومعه أيامه القليلة الماضية ، بدأ من جديد يبحث عن المعنى المتوارى خلفها أو المندس فيها مضيفا إليها أحداث الليلة السابقة التى كشف فيها الغطاء عن صاحبه.

كانت الفكرة المسيطرة تماماً على وعيه هى مدى مسئوليته عما حدث ومشاركته فيه ، هل كان من المحتمل أن تتغير هذه الصورة المفجعة إذا أزيل منها ذلك الجزء الذى يمثله فتبدو مألوفة أو طبيعية ؟ وإذا كان هو العلة والباعث الحقيقى للفجيعة فكيف يحاسب نفسه وينتقم لمن أهلكتهم لعنته ؟ لكن كيف

يكون موضوعاً للحب وعلة هلاك لمن أحبه ، هل يمكن للحب أن يتحول إلى عنصر هدام للحياة وهو يحقق الوجود ؟ وكيف تؤدى معرفة الإنسان بنفسه أن يحطمها ، ألا تصح معيشته إلا بجهله لذاته ؟ كيف يبدل الإخلاص فى الصداقة معناها فيحولها لعداوة وكراهية.. إن هذا يعنى أن يطمئن الإنسان للزيف والخداع ويقى نفسه دائماً شرور الحق !

ثم أعاد الكرّة فى نفسه ، لابد أن هنالك خطأ ، من الجائز أنه خُدع فى شخصيته فتوهمها جديرة بحب هذه الروح المتعالية فى حين ما شعرت به هى شئ مختلف، ربما إحساس بالغرابة أن يشمله محيط نظرها بين من شمل ، ألم تخبره مرة أنها لاتحبه أو أنها لاتستطيع أن تحبه كرجل ؟ حقاً أنها قالت أنها تقدسه ولكن ماذا يعنى ذلك فى أعماق أنثى سوى النكوص عن مواجهة الحياة الطبيعية؟ هل يعنى هذا غير أنها ترفضه فى أغوارها كصنو لها ؟ إذن فقد نهضت فى ساحة ذاتها قوى متصارعة لم يكن هو فى تركيبها .. بل كانت القضية إما أن تمضى فى غيها تمارى نفسها فيه أو تواجه الحقيقة .. إنها لاتحبه ولاتشعر به ، وإذا بذهنها يفصل فصله العجيب فيهديها هذه الفكرة الغريبة أنها تقدسه ! حينئذ هدأ مستقر ثورتها وأتت تسأله فى غموض " إنك يامراد لم تسألنى أبداً حقيقة مشاعرى نحوك" وهل يفهم سؤالها رجل أشرقت عيناها عليه بأحلى المعانى وقصت فى محضره قصصها الفاتن المشوق ، وارتعشت شفتاها يوماً فوق شفتيه تعبران عما تقصر عنه العيون الهائمة ، واحتضنها ذراعاه مقبلة لهفى فى لحظة من لحظات الزمن، وأجابها بما أكد عدم الفهم ، وحاولت وحاورت والغموض يغلف ملامحها والوجوم ينبث فى لسانها " لقد جهدت أن أغرم بك كرجل" أرأيت أنها فى الحقيقة لم تعشق فيك الرجولة ، لم تهتز أنوثتها بك ، لم تجاوب غريزتها غريزتك، كان للمعانى الحلوة فى عينيها سبباً آخر خفياً ولرعشة الشفتين تعليلا غير هذا

التعليل .. هل هو الوهم ؟ لا، إنه كما قال عدنان : أحبتك على طريقتها هى ، أحقا أنها حالة مرضية ؟ كيف صدق إذن أوهامها واستوثق من حبها فى نفسه وبدت أنها من حور الجنان ؟ أهو الوهم ثانية جعله يمنح نفسه من السعادة ما بخل به الواقع .. أكان يتوقع من نفسه أن يجفل منها ويصيح فيها كلا إنك واهمة إذ تفوح ذاتك بحبى .. أن ما تحكيه عيناك حلم كذب وأنه أحقر من أن يكون مكافئاً لها ؟ أن رعشة شفتيك تلك علامة مرض، ولهفة اقبالك دليل سفه .. لبئس العقل إن كان هذا منطقه ، ومرحى بأى وهم يمنح لحظة رضى وسعادة نفس.

لكن ذلك لم يحييها بل أفنى فيها أسباب الحياة ، مرة أخرى يهديها عقلها لضلالة موفقاً بين ما تريده وما بين يديها من قريب .. أن أفضل سبيل إليه ما بعد الحياة وإذا كان قديساً كما أستشعرت فما أروع التضحية للقياه وما أطهر روح تسعى لقدس بغير وضر الأبدان . انتهت بذهنها المتقد وقلبها المفعم بالأحاسيس حقيقية أو باطلة ، فأين هو من كل هذا؟

أنتظر من عقله الجواب فأجاب : إنك غذيت أوهامها واحتضنت أحلامها ونميت فيها خيالا صارخا بالأباطيل ، واطمأنت نفسك بموتها ، نعم إن حزنك عليها وتألمك لشأنها بدا حقيقياً ، لكنه لايعبر عما رسخ فى أعماقك بهدوء وأمان.. أن هنالك شيئاً موجوداً يستحق أن تضحى من أجله بينما المسألة خادعة خاوية لامعنى ولاقيمة لرموزها ، أنت تضيف لجوهرها فى نظرك ما لاتملكه بنظر أى عاقل .. تضيف حيلتها تلك التى كان من واجبك أن تواجهها بالواقع .

لاتكرر فى سريرتك تلك الأسئلة الجوفاء فهى لاتخدع عقلاً . كان لابد أن تواجه عينيها الواهتين بنظر نافذ مدرك لمعنى الإحساس فى النفوس المعذبة، كان لابد أن تجمد شفتاك أمام شفتيها الداعيتين مصراً أن الرعشة أتت من

اضطراب، كان لابد أن تثبت لمقدمها المشتاق معيداً إليها صوابها .. كانت حينئذ سترى الحقيقة وتعرف من هى ومن أنت ، كانت ستستيقظ من غفوتها الظالمة وتمضى عنك لحال سبيلها .. هذا ما خفته أو لم تراجع نفسك فيه وذلك أمرّ.

أرأيت الآن أنه لولاك لظلت باقية وإن كان فى عالم غير عالمك ؟ أما أنت فأبيت إلا عالمك ، وأما الأقدار فحكمت دائماً أنها لغير عالمك وإن خادعتك فيه.

لاتقل أنك لم تكن تعرف أو لم تفهم ذاتها جيداً فذلك ما نفيته عن نفسك وصديقك يبديه لك ، ما ظنك بمن يجهل إنساناً ثم يصور له مثلاً أعلى للإنسانية جمعاء ؟ أليس هذا هو عين السراب الذى استوحاه من ظنونه وتهيؤاته ؟ هكذا أسرتها بصورتك الماثلة فى خيالك فحطمت فى داخلها أصل كل الأشياء ، هل تسعى إلى العدم إلا وقد أصبحت عدما؟

حاول أن يتملص من منطقه ويتزلف إليه بدعوى ماضيه وآماله الضائعة وحاضره البائس ، ومعيشته الضائقة ، فواجهه بحزم ، إن ذلك يؤكد ما أثبته، أن العلة كانت منه وكان هو السبب ، إذن فقد أذنب وتحققت جريرته يقينا لاخداعا كما حاول أن يوهم نفسه صائحا فى صديقه فليقتص المجتمع أبشع قصاص ، ليدفع عنه صاحبه اتهام نفسه ويقيه غوائلها المعذبة ، ليمنحه منطقه يأمن به مشاعره ولكن هيهات ، فالمنطق يحاصره وهو علة موتها ولم يكن أبداً موضوعاً لحبها . ألم يكن هذا ما أوضحه عدنان ببساطة ويسر فإذا به يصادمه ويحاججه ويتهمه بفساد النفس ؟يا للفظاعة كيف ألقى بتلك الكلمات فى وجه صاحبه ؟ ألم يكن عهدهما أن يتصارحا دائماً مهما كانت الحقيقة ، ما جدوى المصارحة إذن إن حجبتها المحاذير ومخاوف الغضب ؟ متى تكشف عن قيمتها إذا ووريت فى أحق المواقف بها ؟ مع ذلك فقد تساهل معه فى الحديث ومضى

به خطوة بعد خطوة نحو مقصده ، لكنه صرخ لما لاحت له نهايته ، فماذا يملك الآخر إلا أن يدفع به ؟ إنه حقا لايكافئها قدرها ، لقد أبى على نفسه إلا أن يفضى بها عدنان واضحة مبينة ، قد حاول أن يلفته إليها دون أن يشعر حتى لايصيبه بأذى ، أم كان يجب أن يذكره بأيامه السالفة حين سعى إليه فى جريدته بائساً يبحث عن عمل لا يؤهله له سوى عهد قديم بالجامعة ومعرفة يسيرة بالترجمة ومقالات كثيرة لعدنان الألفى وعاها جيداً ؟ لم يلو عنه عنقه أو ينظر إليه مستخفا بل دنا منه بقلبه وعقله واستمع له وقد أدهشته أن يحفظ قارئ عنه بهذا الاهتمام الغريب. بدأ يمسك ببعض الصفحات يترجمها لجريدته ويتقاضى عنها ما يكفيه حاجته ، لمس فيه تطلعا للمعرفة وطموحا للأدب فدعاه لمكتبته وسمح له بكل ما تحويه من صنوف المعرفة ، أخذ يستكشف فيه مقدرته الأدبية ويعده بالمساعدة إن أبدع شيئاً بوحى قريحته. شعر فى بعض الأحيان أن عدنان يوجهه لقراءة فئة خاصة من الكتّاب ويناقشه بإهتمام فيما قرأه لهم ، أنه يكاد يفرض عليه آراء بعينها دون أن يدع له فرصة المعارضة لكن ذلك لم يحدث إلا فى البداية كان لابد منه ليعرف الطريق الصحيح . اتفقا بعد فترة على كل شئ فلم يختلفا على قضية أو رأى ، كان عدنان دائماً قوى الحجة واضح البرهان ، وإذ كان قد وقر فى نفس مراد أنه يؤمن بالفضيلة ويسعى للحق ويستمسك بمبادئه فلا معنى لمناقضته بأى حال.. أليس هذا ما حفظه عنه من قبل أن يلقاه وتوثقت بينهما من ثمّ عرى الصداقة ، فكيف جرؤ على مجابهة حقه بباطل ، ودعواه للمبادئ والقيم بمضمون بشرى زائف ؟ لقد ذهب عنه و هو ينأى بأذنيه عن صوته وتبرأ ذاكرته من صورته ، لقد حطم الإنسان الذى تبقى فى عالمه ، بل الذى صنع عالمه، أفناه بطيشه ونزقه فعاد إلى وحدته وغربته تطارده لعنته، انقبضت نفسه وقد لاحت لها أيامها الماضية تنتهى هذه اللحظة بإحساس

كريه باليأس أو شعور قاهر بالخور ، هو الذى اجتاحته الغيرة من صديقه حين لوّحت له ظنونه بحبه لأنثى هالكة ، فقضت على مشاعره الخيرة ، هل يمكن لهذه النفس أن تعرف الخير وهى ضعيفة واهنة ؟ أملى لذاته بما لاتستطيعه ولم تخلق له ، صور لها رقياً لم يكتب لمثلها أن تبلغه ، ثم صدق أنها استطاعته وبلغت إليه مبلغها ، وهى الآن تهوى إلى واقع لن يقبلها وإن بالغت فى اليأس والضعف . أنه لايستحق صداقته كم لم يستحق حبها ، لقد كان يشغل مكانا لم يصنع لأمثاله لدى صاحبه أو فى قلب محبوبته لأنه أقبل على كل منهما فى نهم يطوى كل ما يصل يديه ، ثم حسب أنه مستحق وأنه جدير وأنه الأولى بالنعم ، لأنها ماتت تقدسه والآخر ذهب غيوراً محنقاً ! ابتسم لنفسه متخاذلاً وهو يقر بضعفه وعدم جداوه ويبرهن عقله على تهمته فلايملك له دحضا أو مماراة ، ورفع لرأسه الأمر فى استسلام فلتحكم أيها العقل بما هو واجب لعل حكمك يصحح فى النفس هذا الاعتلال ، ليس لتلك الأحاسيس المتناقضة المتصارعة أى قدرة على الحكم، لاتعرفها إن لجأت اليك تستعديك أو تسترحمك ، إنها سبب البلاء . لاتكرر ما تسعفك به ذاكرتك فى كل مرة أن سنبدأ من جديد ولنطرح ما قد فات فان هذا لن يفوت ، اليوم نريد العدل ولاعدل بغير قصاص والقصاص أن تذهب إلى حيث أذهبتها إلى العالم الخفى. أن تتوارى عن صاحبك إلى حيث لاينتظر صوتك أوذكراك . أليس هذا هو عدل الحكم؟

عجبا لمشاعره فقد انشرح بها صدره وعقله يلقى إليها بحكمه ، إنها تهفو إلى عالم الغيب بعد أن بطل فى محيطها الواقع ، إنها مشاعر الاطمئنان والرضى الذى يختفى فيه أعمق معانى الاستسلام واليأس بل والضعف الشديد ، هل يرضى بنهاية الشوط موئلا إلا من خاب ؟ تشكك عقله فى الحكم لحظة وقد انتظر المقاومة والانتفاض ، لم يعتد من هذه الجوارح أن تطمئن لحكمه مهما عدل،

أتراه قد أخطأ الحق ؟ عاد من جديد يبحث الأمر فانتبه .. أليس مما يخفف الحكم ما سعى به من خير لتلك المرأة التعسة نوال ؟ أنه على الأقل لم يكن سبب أذاها.. حتى عدنان اقره على هذا وأكد له أنه لم يكن علة هلاكها، فقد فعل ما كان لابد أن يفعله تصديقا لمبدئه أن ينصر الناس على أنفسهم مبينا حقيقة ما يفعلون ، هل كان سيدعها لمفهومها الخاطئ عن الشرف جاهلة بواقعها المشين؟ أنها حقا ذهلت بما ألقاه فى روعها ، وانهار فى أعماقها ما اعتقدت فيه وعاشت به سنين ، لكن من أين أتت بقوة الحكم بالموت على نفسها ، إن الكيان المحطم لايملك من أمر نفسه قرار الافناء ، هل هى دوافع موغلة فى أعماق الشخصية تناقض فيها الحياة ، وتهيمن على أقدارها ما أن تضعف وتنهار لتنتهى بها هذه النهاية الموحشة ؟ لم يقتنع مراد بمضمون السؤال فهو نفسه قد احتكم لعقله فأقر نفس القرار ولو كان ذلك نهاية شخصية محطمة تتقاذفها وتلقى بها عوامل الفناء ما أسرف فى تحليل هذا الحكم وما أمهل نفسه مهلة الدفاع كيفما طال.

اذن فقد وعت نوال ما فعلته ولم يكن طيشاً خلقته دوافع غامضة جرفتها نحو الصخور ، لقد أدركت ألا مكان لها بين الناس لأنها فقدت مكانتها فى نفسها ، كانت من قبل تحيا واثقة لأنها مستمسكة بمعنى الحياة ، أما وقد تلوث وفسد فكيف تعيد لذاتها طهر البداية وتمسح من وعيها ما لطخه القدر ؟ هل من سبيل تسلكها سوى أن تطلب حياة جديدة تجارى بها الأحياء ، هل من سبيل لحياة جديدة إلا أن تنتهى من تلك ، فالموت ضرورتها لتستجدى الأمل ولاطريق سواه.

قال له صاحبه أن خطأه الوحيد نحوها أنه تركها بسرعه فلم يمنحها من الزمن ماتستوعب بها بليتها ، لم يطلعها على ما يمكن أن تبشر به الأيام ، لم يعدها بمساعدة ، لم يبرهن على نبل مقصده ، هوى فوق رأسها بحقيقتها

ففزعت ولم يفتح ذراعيه ليتلقاها رحيما كريماً هادياً ، فسقطت فوق الصخور.. هل كان الزمن كفيل خوفها ؟ إنه لو لازمها طيلة أيامها ما كان ليعيد بناءها المتهاوى، ذلك فى حاجة لقوة خلق جديد وهو ليس بمقدور بشر . لقد تفشت فيها الحقيقة الرهيبة ، أن تلك الحياة غير جديرة بها فأى قوة ستطمس تلك الحقيقة وقد أشعت فى نفسها ؟ يا لك من مفكر بارع أيها الصاحب مفعم بالأمل والرجاء ، تريد أن توارى من بصرها حقيقتها لتضيف إلى الأحياء نموذجاً جديداً للبهتان ، هل هو أملك ورجاؤك أن يفيق البشر يوماً وتتفتح بصائرهم وتنتعش ضمائرهم وتقر وجداناتهم بالخير والحب ؟ يا له من حلم قديم راود غيرك كثير ، لعلك صدقت فى النهاية ماتسطره بيقين ، لقد أخلصت على كل حال لمبدئك حين اشرت نحو هذا الخطأ . أما هو فقد كذب سواء هلكت أم ظلت على قيد البقاء . كذب لأنه ساند فى أعماقها القوة الهادمة وهو ينشد لها بنيانا صحيحاً سالماً ، أما كان يشهدها أولا أى الأحياء موسوما بالشرف قبل أن يجادلها فيه ؟ أيهم قد محا من نفسه حب الشهوات فحفظ ذاته طهوراً صالحا، أيهم لم يرمق جاره وصاحبه بعين الحسد والطمع ، أيهم لم يتوارى عن التضحية حين ناداه الواجب قائلاً نفسى ما ليه ؟ أليس ذلك كذباً أن تعد إنساناً بما تعرف أنه لايوجد ، لقد غرتك الأمانىّ فحسبت أنك مصلحا لبنى البشر وأنت بعد لاتعرف معنى الاصلاح ولم تستيقن مقدرتك عليه ، تلك هى الحقيقة ، نفسك مرة ثالثة، حامت حولها الأوهام والأشباح تغنيها غناء السراب للهلكى الظامئين ، صدقت فأقبلت ترتدى مسوح الصالحين بنفس تجهلها تمام الجهل، الآن أصبحت تعرفها وتعرف ما يجب عليك نحوها .. فهل لديك اعتراض؟

ارتسمت فى نفسه ابتسامة غامضة ظاهرها الرضى وباطنها الاستسلام والتسليم ، لحظات يهدأ فيها العقل وقد انتصر لحكمه فلاتملك الأحاسيس

إلا أن تقره وتوافقه فتنشر فى النفس هذا الغموض المريح الذى تجد فيه كل ما تبحث عنه وربما لايحتوى على أى شئ إلاما ليس لديه اعتراض ، إنه يستحق الموت ، ولايحسبنه عقاباً بل هو بداية جديدة أو منحة من الوجود ليستوثق خطاياه هنالك سيعرف بالضبط قدره ويدرك حقيقته وحقائق أخرى مغيبة عن وعيه ، سوف يكون سبيله للارتقاء كما وفقت إليه هناء.

هكذا أخذ يملى على ضميره من الحجج ما يريحه ويسكنه إلى حكمه الرهيب، فبعد أن استقرت أفكاره وانتظمت أندفعت ذاته بما أوتيت من خيال تصور له الموت أنه طريق الحقيقة.

استلقى على فراشه فى هدوء مستسلماً لأحلامه الغريبة التى تشبه أحلام اليقظة لولا أن الأخيرة تتشكل من هذه الحياة ! كانت حالته أقرب ماتكون للمخدر الذى تلاشى وعيه إلى صور هائمة فى محيط من فراغ ، أو هو كسطح ساكن لبحر التهم سفينة واعتصر أهلها فى جوفه منذ ساعات معدودة ثم عاد يبث هدوءه وسكينته.

لم تكن طريقة التنفيذ مستعصية ، فما أقرب الحاجز الصخرى إليه وما أحبه! من هنالك واعد الحياة وواعدته ، أيضاً استهلت طريقها منه هناء، لعلها لن تسبقه فى عالم يغفل حساب الزمن!

مرت ساعة ولم تزل الساعة التى تناسبه متوارية فى حجب الزمان لاتفلت من زمام قدرها مهما عظمت إليها قوة الرجاء وألحت بها . تساءل إن كان هناك ما يفعله فخطر بباله أن يكتب لصاحبه معتذراً ، وإن كان فيما سيأتيه أوضح إعتذار، لكنها رغبة الإنسان الخفية أن يبقى منه أثراً.

لم يكن يسيراً عليه أن يمسك بالقلم فيكون آخر ما يسطره به رسالة اعتذار، كم كانت آماله عالية سامقة فى تلك الحروف والكلمات .. أن تحمل منه هديا ورشاداً وتدل على صدق وحق . لكنها كانت نبتا غريباً فى أرض لم تستأهل لغير الأشواك ، ولمن الخطاب ؟ لهذا الذى ارتأى فيه سره الدفين فحفظه ورعاه فيه . الآن تنكشف الخفايا لتبدو النفس زائفة.

كتب بضعة أسطر بصعوبة وعناء ثم استاء مما كتبه فمزقه ، عاود كرة أخرى فلم تتهيأ لحروفه صور معانيه المتضاربة ، أوشك أن يفقد هذا السكون الذى أحاط به وحفظ عليه وعده أوتوعده ، إن أبسط حركة لسطح الماء الساكن ستثير الخوف وتبعث الريبة من جديد ، هل تبقى لديه من جهد الاقناع كثير؟

أخيراً طاوعه القلم بعد أن لمس من أنامله ما أشفقه عليه فرضى أن يمضى بما تمليه خواطره سواء أنعكست بمعنى مفهوم أو أضلت صاحبها عن مقصده.. كان ذلك ما خطه:

" عفواً أيتها العينان القارئتان فقد أبى قلمى إلا أن يكون مداده دمى أستنزفه واعياً بعذاب أليم ، أوحى الىّ أن هذا يكافئ راحتى ويضمن رضاى ويهيئ نفسى للحقيقة الخالصة . لم أجاد له فى وحيه فما الذى أخسره أن أخلفنى ما واعدنى عليه؟ هل أبخل عليه بقطرات وقد أزهقت فى سبيله آمال ؟ فقليل من الأذى يصيبن عينا قارئة يشير لهول ما اقترفته اليد الكاتبة . لكنها حكاية طويلة تعرف أيها الصاحب معظم فصولها ، الآن خاتمتها . ربما أوحت لخيالك الواسع بصفحة تعنى شيئاً لإنسان ، حتى ولو تسلية ، فلا أظنك تعدل إن بخست حياة إنسان ورقة مهما كانت حياته تلك تافهة لاقيمة لها ، أو هو عدل جبارين . أظننى أستحق من نظرك إهتماماً ما ، ولن تتنكر بالطبع لنظرة سابقة.

معذرة يا صديقى إن كانت تجرفنى خواطرى إلى حيث أوقعت بى فى لقائنا الأخير ، إننى حقيقة قد أدركت الأمر كما يجب وهو لايختلف عما أقررته أنت كما يحدث دائماً . ما كنت لاستسلم لضعفى ثانية فأرحمها واعدا بصلتك من جديد. فتلك رحمة خاوية مهما راودك من دواعى النبل ، فسوف يضفى كرمك إلى خطئى ما لا أقدر على احتماله . فهبنى فى ذاكرتك بعض عدل الجبابرة!

أم أنك سترنو فى أسف لأمل راودك فىّ وحسبت أنه قريب المنال ؟ إن الإنسان يا صاحبى يعجز عن مواجهة الورق إذا أخفق فى مواجهة الحياة إن كنا نعتبر الصدق مقياس الفنون ، فهل ترانى قادراً على أية مواجهة ؟ ذلك هو سر نجاحك وهو فى نفس الوقت سر اخفاقى . أن لديك قواعد راسخة تقاوم الأحداث وتناضل عن وجودها فى إباء ، أنت تعرف ما بيدك ، أما أنا فلاأكاد أضع يدى على شئ حتى أفسده وأصيبه باللعنة لأنى لا أعرف ما أصنعه.

هل سألت نفسى وأنا أجادل المرأة المسكينة إن كنت حقا أعرف معنى الشرف . أم أن ما جال بخاطرى لم يزد عما يشاع بين البشر ؟ لقد كانت هى آصل منى فكراً دون أن أعيى ، لكن مظهرى خدعها ، أو ربما لغتى الجديدة فى أذنها ، أو لأنى رددت فى أذنها صخب المجتمع فأصبتها بدوار أصابنى قبلها ولم أشعر به . أتدرى يا صاحبى أننى مهما كنت مواسياً لها ما كانت لتسترد طمأنينتها لنفسها ، بل ربما أزعجتها أكثر نظرتها الجديدة لمن حولها وقد تحولوا فى عينيها إلى جلادين . هذا ما أشعر به بالضبط ، أنى فقدت طمأنينتى ، ولن يعيدها إلى شئ، فحكمى على نفسى هو حكم القدر دون ذكر الزمن.

إذا كنت غير قادر على الحب عاجز عن فعل الخير ناكر لفضل ذوى الفضل فهل أسئ للحياة بوجودى أطول من هذا الزمن.

سأمضى إليها كما تلهفت علىّ واهمة أو صادقة ، سأقتفى أثرها من حيث ودعتنى دون أن أراها ، سوف أقابل هناء . تلك جائزتى فهى حقيقة ما أفعله، إنما أردت منك أن تعلم بأننا لازلنا لم نختلف ، وإن كان فى هذا ما يعنى موافقتك على ما سأفعله فذلك أمر ليس بيدك أو بيدى فنحن نتحرك وفقاً لما اخترناه من قواعد ، ولن تنكر قواعدنا أفعالنا.

ما أقصده أنى قد فعلت الصواب حين رأيت ما رأيت وهذا مما يزيد من قدرك فى نفسى وإن كنت اعرف أن هذا سيصيبك بفزع ، أتيت إليك فى البداية بطريقة مفاجئة ، لم أكن أعرف نفسى يومها ، الآن أذهب عنك مصحوبا بدهشتك لكننى أعرف من أنا ، الفرق بين البداية والنهاية تشاركنى فيه فلك عرفانى.

تطلعت إلىّ يوما وبين يديك إحدى تراجمى وصرحت بقول غذى فى أعماقى أملا خفيا ، نشد من الخيال سندا وفى الأحلام دنيا واقعه. ربما لاتزال تذكره، هذه اللحظات لا أذكره ولا أحاول أن أفعل ، فما سيرسخ فى ذهنى لحظاتى الباقية أن الحياة لاتمنح العظمة لإنسان يتهالك عليها بلاسبب أو بأى سبب ، أما الموت فيفسح له ما يشاء.

الإنسان لا يندفع للمجهول إلا وفى أثره حقيقة مفزعة ، ليس على الأرض مكان يلجأ إليه إذا كان الفزع فى باطنه ، إلا حيث تئويه الظلمة أو النور الأبدى. نفسى هذه اللحظة مستقرة ساكنة لا تأبه لموضع خطوتها التالية فهو عنها بعيد، أما تلك الأشباح التى تعبث بخيالى فأظنها سبب رعشتى وما هى سوى بقايا الأوهام وما هى غير ضعف بنيتى . هل يؤثر وهم زائل على طمأنينة راسخة ؟ هل يخيفنى لقاء بمن أحببت وضاع أملى فى لقياه ؟ نعم هذا هو السبب، لقد كانت تصيبنى رعشة خفيفة قبل موعد مجيئها بلحظات ، كانت جوارحى تنتبه

فى قلق وجزع إذا تأخرت دقيقة ، لكن تختلط تلك المشاعر بسواها لحظة اللقاء فأتحول إلى حالة عجيبة ، ما الذى قفز بتلك الذكريات لوعيى وأنا أكتب لك ؟ ربما لأنها الشئ الوحيد الذى يمكن أن أقارن حالتى الآن به ، كم أتوق لأطلعك على ما بنفسى بكل دقائقه ، فلن يفهم ما يدور فى أعماقى غيرك.. هذا ما تأكد لى.

حقيقة لن أعرف وقع ذلك الأمر عليك ، لكن ما يريحنى أنك ستكتشف أنى أصبحت للحظة ذاتى وأن ما تبقى من قواى بعد ذلك لم يمكننى من احتمالها وإن مكننى من إهلاكها . لن يراود ذهنك أنى ضعفت أمام الحياة أو جبنت عن مواجهتها فأنا لم أكن قويا منذ البداية ولم أتصف بشجاعة ، لن تخلق يا صديقى ما أعدمته الحياة مهما أخلصت نيتك فشكراً.

إن ألتمس منك معروفاً فهو إخفاء أمرى ، لا أظننى مؤهلاً لتكتب عن نهايتى صحيفة ما ، إلا أن يعمد إلى ذلك صديق ، ليس طريقى إلى الصخور بالأمر الذى يثير فهو لايزال مستقبلا من ينتزع أملاً فى حياة فإذا هى التى تُنتزع بما فيها من أمل.. إن كان..

أتمنى ألا يقرأك كثير من الناس ، فمن يقرأك يصدق ما يراه ويعيش به ويلوح له كثيراً من القيم التى وارتها أيامنا الحاضرة فيتمنى لو ذاعت فى الناس.. ما أشد البلاء حين تستزرع أرضا لاتنبت غير رؤوس الشياطين مهما رويتها بالقيم. سوف تفسد بهذا معيشتهم وينبذهم عصرهم ، الإنسانية يا صديقى تتراجع لوحشيتها ليسترد التاريخ ما أهداه ، فهل يتبقى لها أثر إذا فنى ؟ لقد رددت على هذا التاريخ هديته وانطلقت وحدى إلى النهاية وسوف ينطلق غيرى كثيرون إذا أدركوا هذا الأمر . ليست دعوة هلاك أو ادعاء هالك بل هى صرخة ربما أنصت لها منصت دون أن يهز رأسه ويمضى مردداً : " لقد فعلها آخر ومن النفس المكان".

شكرا لقلم استنزف بقاياى ثم طرحها لعينين لن تضيقا بعد اليوم بسواه ، ما حسبت أنى مستطيع كتابة حرف لك ، لكن ما تبقى جدير أن ينقل إليك سطوراً بعد أن ينقل إليك أنى قد مضيت" .

ثم أمهر رسالته بتوقيعه ووضعها أمامه قليلاً ، ثم أمسك بالقلم وقد انتبه لاسمه فى نهاية الخطاب فمحاه.

لم يشعر وهو ينتقل إلى هذا المكان من الشاطئ ، بأدنى شعور بالذنب نحو نفسه أو أى إنسان ، لقد محى قراره الأخير هذه المشاعر وأصبح لا يشعر بها أو بغيرها ، هل هو نوع من الترضية لذاته لما سيجلبه عليها من هلاك ؟ أن يحيط عذابها بسكينة فلا تستعصى عليه وتقاومه وهو ينطلق بها لنهايتها ؟ أم هو فقدان للوعى مع إثبات إدانته والحكم عليه ؟ أم هو ذهول عما فى باطنه ووجوم بما حوله مما أرهقه ؟ إنها المرة الوحيدة التى تحمله فيها قدماه إلى هنا لا تحفزه مشاعر فرحة و لهفة أو مشاعر ألم وشكوى أو فضول ، بل تحملاه بوحى الذاكرة تحفظ عليهما الطريق الصحيح ، وتلك المشاهد التى لاينساها لأنها تشابكت بنسيج إدراكه وتأمله لأعماقه من هذا المكان لذا فقد أتى وهو لايكاد يعى أنه انتقل من حجرته الضيقة إلى حيث حاجز الصخور ، فقط يعلم أنه ها هنا سيحتضن اللانهاية والمجهول ، لولا أن جلب عليه هذا المكان تلك الصور لاحتضن بدلا من الصخور شارعه من إحدى نوافذ منزله ، لكن هل يمتنع عن رجاء روح أحاطته صاحبتها بأجمل لحظات الحب ؟ لن ينكر ذلك . لكنه لن يفكر فيه.

استسلم لهدوء الليل المتغلغل فى كل شئ ، منه تنبعث روح الكآبة والسأم، يصبغ الوجود بصبغة طاغية تفتت جميع الألوان إلى جوهرها المحض ، إلى العدم، استرسل نظره مقتحما الظلمة تسبقه ذكرى المكان ، فبدت الأشياء فى صورة هزلية ، كأنما مستها روح شريرة فمسختها . لقد ذابت حدود الأفق فى

السماء وانصهرت تعاريج الشاطئ فى خط وهمى غريب ، أمسى من لايعرف أن بحراً يترامى أمامه يتساءل فى حيرة عن مصدر تلك الأصوات المتقطعة التى تتسلل إلى أذنيه فى خفاء ، هل هى لمخلوقات متخفية تسكن الأقفار والبرارى وتعبث بمن يتحسس مواضعها ، أما من يعرف فلا يتبادر لذهنه شئ من هذا، يستقبل تكسر الأمواج بسمعه كما يستنشق بأنفه هواءه بغير مظنة أو توهم . مع ذلك ستصيبه رعشة الخوف ، ليس بوحى الأشباح وإنما بوحى هذا الحاجز الصخرى الصلد.

فى تلك اللحظة ناجى مراد نفسه وهو يشهد فى مخيلته ما سيقدم عليه ،يخترق بصره كثافة الظلمة فيرجع إليه بارتفاع شاهق يفصله عن الصخور ، سأل نفسه بعد أن أتاح لها فرصة المراجعة ومضى معها فى أى سبيل:

" أظننى أنتهيت إلى هذا المكان بحق وصدق ، كان حقا علىّ أن أصغى لشك يراودك فأمحوه وأعيد أمامك أيامى الماضية لتستيقنى عدل ما حكمت به، الآن هل تسمحين بتنفيذى لحكمى؟".

كان رجع خاطره استسلاما وصمتا ، فقد بدا أن منطقه يحاصره وإحساسه يفتقد ما تهبه الحياة للكائن غير خاضع لأى منطق . فتقدم كأنما بإرادة حقيقية تسوقه ، نظر إلى الهوة السحيقة قبل أن يهم بإلقاء نفسه فيها فاندثرت فيها نظرته وما ألقت بالا إليه سوى صفير ريح.

هل هو واثق من موضع قدمه التالية ؟ أنها لن يكون لها موضع ، بل ستتحول إلى بقايا ، اذن فما باله ساكن الملامح متكتم الانفعال ، أو ذاهل الشعور مفقود البصر ؟ قدمه تبتعد عن مستقرها الآمن إلى حيث لاتطمئن لثبات ، فهل هو واع؟ كأنه بخطوته تلك ينضم لصفوف السعداء أو أنه لايبعد عن الحقيقة سوى أن يرفع قدمه إلى موضعها التالى فتنكشف له ، ما بين قدمه وموضعها

التالى ما بين المحدود واللانهائى ، فهو ينتقل بارادته إلى حيث لا إرادة له واثقاً من الرفعة والكمال!

هاجه فجأة إحساس بالفزع أعاد قامته المتوثبة للقفز لاعتدال ، لقد ميزت عيناه شيئاً على صفحة الماء فأوشك أن ينخلع قلبه وهو يظن أن من ورائه من يرقبه ، وانعكست صورته على الماء ، استدار بقوة وخوف معا يستيقن من ظنه فلم يجد خلفه أحداً ولا إلى جواره حيث أنتقل بنظره بتلقائية عجيبة ، دهش فى نفسه حين أدرك أن ما انعكس على الماء ليس سوى صورته هو ، هم بالتكذيب، فعاود النظر نحوها وهى تتراقص فوق الموج أو يراقصها الموج بأنغامه الغامضة، لم يصدق تماماً أنها هو إلا حين رفع يده فارتفع من الظل المساوق له ظلها . لم يلاحظ والظلمة تحيط به أن أنجماً أرسلت بقليل من ضوئها حين اتخذت بعض السحب موقعا جديداً فأتاحت لصورته أن تقفز فوق الماء . لحظات تفترق فيها السحب بعد اتصال لينطلق الضوء من فجواتها تتلقفه عيون تهتدى به ويفزع من شملتها الظلمة وأحاطها الظلام ، فلا تميز ما ينتمى لها فى الحياة وإن يكن ظلها !

ما كان الوجود ليسمح لأحد ساكنيه أن يناقضه أو يتحصن من مواثقه ، فان تكن من أهل الصحارى والقفار فألفتك بالأماكن المترامية وخلقك يتسم بالوضوح والعناد ، وإن تكن من أهل الغابات فمهارتك فى التخفى والمناورة، وأن كنت محاطاً بالظلمة وتسلل من بين أستارها ضوء يعكس صورتك فوق الأمواج فلابد أن يتسلل ليقينك بالدجى شك الأنوار ، لن يسمح لك الوجود ان تغفل تحوله وإذا فعلت فلن تكون من ساكنيه.

انطبعت صورة الكون المحيط فى وعى مراد منذ زمن واستشعر فى باطنه منه كل تحول ، اللحظة التى أوشك فيها على الرحيل تسلل إلى ضميره ذلك السؤال

الغريب متوافقاً مع ذلك الشعاع الذى ألقى أمامه بظله والذى شكل فى إدراكه وجوداً لكائن من خلفه أو لجانبه ، وليس الوجود دائماً يمثله بشر.

ما أن أتضح لذهنه مضمون السؤال حتى زلزله خوف أعتى من كل خوف ساوره ، ما كان أنجاه وهو يستسلم لقضاء حكمه من تلك المشاعر المفزعة التى اجتاحته تلك اللحظة .ما آمن الظلمة حيث لايرى أثراً لأى شئ وحيث يصبح لاشئ .. ما أقوى ذلك الشعاع الذى ترجم كل هذا الوجود وإن حول حقيقته لظل متداخل غريب فتساءل باضطراب : كم يكون الفرق بين تلك الصورة المنعكسة التى لم يميزها وحقيقته الباقية فى كيانه ، كيف تزداد وضوحا إن تحول الضوء الخافت إلى نور مبهر إلى نهار فيميز منها أخفى لمحة ويتابع فى مجراها أقل تغيير . . ألا يصح أن ما رأته هناء منه لم يكن سوى صورة منعكسة كالتى لمحها منذ قليل فلم يعترف بها ، وما رأته منه نوال ليس إلا ظلاً ظنته صاحبه ، وما رآه فى عدنان لم يزد عما رآه فى ظلمته الداجية؟

أن حقيقته التى حاول أن يكتشفها فيمن حوله توارت واحتجبت فى صورة ناشزة أو ظل منحرف أو ليل بهيم ، إن الذى أهلكها والذى يمكن أن يهلكه هو هذا التداخل والانحراف ، هو ذلك الضوء الخافت الذى لم يتحول لنهار، هو أن كلا منهم قدر ما رآه على هواه فجعل من عبث الطبيعة حقيقة إنسان ، إنهما يقينا علما الحقيقة ، ولكن هنالك حيث لاظلام ، لقد أوشك أن يلحق بهما ليصبح فى عداد الضعفاء الهلكى الذين استعصى عليهم الليل واستهواهم حاجز الصخور كما استهوت كروزو الحسان.

أجبه أيها الضوء الخافت أو لتنقشع عن نهار وإلا ما كنت أخرجته من ظلمته وأعدته لحيرته ، لقد أعقته عما قدّره راحة لفكره وضميره فهل تتركه لعذاب ؟ أيسأل الإنسان عن ظله لم أخفاه أو غايره ؟ إنها توهمت أن ما لمحته منه حقيقته

بينما لم تميز منه سوى خلق وجدانها ، تمثلته قديسا بكلمة قالها وتوسمت فيه مثلها الأعلى بنظرة نظرتها اناه ، اختلط النظر بالحديث لحظة بلحظة لتنطلق من ظل متداخل إلى كائن بشرى تلمسه اليد وتتحسسه الشفاه ، فإذا بالشفتين من دم ولحم ولهما رحيق الشباب ، ما إلى ذلك ألمح الوجدان وتاقت المشاعر الراقية، ليس هذا هو قدس الأقداس ، فهل يؤاخذ بما خلقته نظرتها الطامحة من غرور وحزن ؟

تدفقت الدماء فى رأسه عنيفة جامحة ملبية هذا النداء الواضح للحياة الذى لم يصرح بها خوف المجهول أو تنادت به صيحات العدم ، بل دعا إليه العقل فى ثقة وان كان الباعث إليه شعاعاً . كأن بارقة الأمل يد ممدودة جذبته إلى الخلف خطوة أو إلى الأمام إذا تغيرت وجهته.

هزت الدماء الحارة خلاياه فتذكر بنشاط وحماس كيف كانت تتغير أحوالها من لقاء للقاء وأن حديثها أيضاً كان يتقلب تبعاً لحالتها ، فحين كانت تهيم حباً ووجداً كانت تسمعه شعراً ، وحين كانت تأتى مهمومة مثقلة بالخواطر الداهمة كانت تلوى بالحديث إلى الكئيب منه والموحش ، حتى حالات الغضب التى اعترتها فى بعض اللقاءات كانت توفق بينها وبين أفكارها السابقة توفيقاً بارعاً ونداء الحلم والسكينة لم يزل بطرف لسانها من وقت قريب .. فتر حماسه وانحسر نشاطه ، إن ما كانت تفعله أمر مألوف من أى إنسان ، هل يتحدث المرء بشئ وهو يشعر بسواه ، أتنبض عيناها بحب وينطق لسانها بوعظ ، أهذا ما كان سيألفه منها ؟ أم تنطلق غاضبة بلسان محدث بفضل الاتزان والالتزام؟

شعر باحباط لتفاهة ما تذكره وما أثار فيه من حياة ، ثم فجأة عاوده النشاط مضاعفاً والحماس يدفعه لأهمية ما تذكره ، لقد غابت الفكرة قليلاً بين جنبات ذهنه فلم تصل إلى وعيه لحظة اهتزت مشاعره بكشفه الجديد ، فبدا كأنه انفعل

بطيف حلم أو انتبه لما يراه فى كل حين ، بينما هو يتحسس برهان حديثه من أسر دعواها ويكاد يدرك حقيقة ما فعلته . إنها كانت تنفعل بما يدور برأسها، ما كانت مشاعرها أبداً هى المؤثرة ، إن شعرها لم يعبر عن حبها بل خلق فيها الشعر هذا الشعور ، ووحشتها لم تثر فى لسانها حديث شجن ، بل ابتدعت الكلمات فيها وحشتها وحزنها ، حتى غضبها كان تمثيلاً لما تصطنعه من موقف فى وعيها، كاد لسانه أن يردد بصوت مسموع : نعم ، هو كذلك ، يوم قرأت روميو وجوليت كانت تذوب حبا وهياما ، ظننت أن أحاسيسها أطلقت من وعيها أشعار شكسبير بينما تلك الأشعار هى الخالقة ، يوم كانت حزينة يائسة افاضت فى حديثها عن " جود " و " سو" وما أبدعه هاردى فى وصف مأساتهما، سمت نظرتى لثقافتها وقلت فى نفسى أى حزن هذا الذى يحرك فيها ذكرى هذه المأساة الدامية لابد أنه احساس عميق بالحياة .. ويحى أن حزنها وقتئذ لم يكن سوى انعكاسا طبيعياً لما قرأته بانفعال ، ألم يدهشنى غضبها ذات مرة واستعصى علىّ أن أجد له علة ظاهرة ، قلت ربما آذاها أمر تستحى أن تطلعنى عليه ، ثم فى لقائى التالى بها ظلت تحاورنى فيما كتبه " تولستوى فى قصته " البعث" ، الأمر جد واضح ، فقط الآن ، لابد أنها اتخذت قرار الانتحار بعد استهواء الأفكار واضطراب الأحاسيس وسيطرة هذا الضعف على مسلكها العام.

هى لم تحبه اذن وإنما اتبعت ما أوحاه خيالها ، كان إقبالها عليه منذ البداية توافقا مع أوهامها فى تلك اللحظة وأنبتت البذور الزائفة فى الأرض القاحلة صوراً وخيالات ، لم يكن هو سبب موتها ، إنما تمثلت فى حياتها هى ما أوحته شياطين الفن وأقبلت على الموت كأنما كانت تظن منه رجعة اذ ينتهى فيه دورها.

وبقدر ما بعثت فيه هذه الفكرة من يقين بنفسه وتبرئة لها بقدر ما حركت فيه من حزن وألم وان سبق هذا اليقين إلى مشاعره ذاك الألم . نعم هى لم تحبه ولم

تعرفه ذلك الآن دليل برائته لكنه فى نفس اللحظة يحرمه من دليل سعادة غمرته لحظات من عمره لن ينساها ما بقيت فيه ذاكرة . جعلته يمثل على مسرحها دور البطولة أمامها دون أن يلمح الفرق بين الواقع وما أبدعت فى اخراجه ، هى نفسها خلطت الأمر فلم تميز حتى آخر لحظة أى فرق . أوشكت أن تفقده آخر شعاع يميز به واقعه وهى هنالك تكتنفها ظلمة واجبة . تساءلت نفسه أخيرٌ إحساس ينبض ولو بالألم أم فقدان وزوال لأثر الحياة ؟ أليس قبول الموت فى هذه الحالة يأسا وقنوطا يتجنبه أى منطق ، هذا الذى آمنته على مصيرك؟ إنه لضعف أن تتنازل عن الشعور إن اهتز ولو للأبد بالأحزان طالما أنك علمت علتها ولاحيلة لك حيالها ، سيفتقر حكمك للعدل الذى وثقته على حياتك وطالبك منذ قليل بالقصاص ، ليس هناك ما تقتص به من نفسك ولن تقول سأقتص منها لأحزانها أو أوهامها ، بل تقول سأقيلها من عثرتها وأهزها من أحلامها ، فذلك هو العدل ، ولترحمها فقد أوشكت أن تزهقها ظلما لولا شعاع من السماء .

كان نظره لازال متشبثا بصورته يتابع فيها كل حركة تأتيها يداه أو قدماه بتلقائية ولاشعور ، تمنى لو كانت الظلال تعكس الملامح والألوان ، إذاً لشاهد فى ذاته شواهد الحياة ، لكنه لايعلم أنه بهذا يندمج فى الوجود فلايتساءل عن ظل أو ذات.

أخذت تنتعش فى روحه حقيقته وتسعى لشروق يزيل كل ستر تحتجب من خلفه المخاوف والأوهام ، يبدد أية ظلمة تنطوى على ريبة ، ينتشر فى ربوع كيانه مؤسسا لرجاه وأمله فى الحياة أساسا من نور . قالت له نفسه فى تخوف وهو يرنو لصورته بثبات : " لقد تحررت من أسرها فرأيت بوضوح مكانتك لديها، لم تكن أنت الذى أملى لها فى غىّ وخداع ، بل هى التى أغوتك بشكل

من الأشكال وخدعت أحاسيسك نحوها ، أحببتها أنت حقا مهما اختلفت دواعى هذا الحب وتعددت ، أما هى فاتخذت منك طوطما تقرب إليه الصلوات وهو بعد لاقيمة له عند من يعى ويميز فحواه ، أنفذت عزمها راجية أن تلحق بها بعد حين وهى لاتزال سادرة فى رقادها الطويل . ما كنت بقادر أن تصدها حتى ولو أدركتها فما يدخل مثل رأسها لاتخرجه أقوى الرؤوس فهو يصبح مادتها الباقية.لكنك تستطيع أن تبرئ نفسك مما جلبته عليك ظنونك الأولى من هموم وما سببته من ويلات ، فلو كنت رأيت يومها ما تراه الآن لعدت لمنزلك لاتهتز مشاعرك بغير الأسف وطلب الرحمة لها ولأمثالها ممن عذبتهم نفوسهم فأهلكوها ، ما كنت آويت ليأس عارم وحزن ثقيل انتهى بك لمأساة جديدة، ما كنت لتساند فى تلك المخلوقة البائسة قوى الهدم من أعماقها حين حسبت أنك تقدر على بناء ، وأنت تحيطك الظلمة من جميع جوانبك .فهل تحررك من أسر حب زائف يقيك عاقبة شفقة واهنة؟

تلقى ما جاشت به نفسه باطمئنان ، إن تساؤلها عن نوال يؤكد اقتناعها بما ذهب إليه بشأن هناء ، أنه برئ من حبها ، لقد اطمأنت أعماقه لصدق بصيرته فذهبت تقطع باليقين كل الشكوك ، لم تستسلم لحزن طرأ على فقدان حب لم يكن موجوداً فى الحقيقة ، واندفعت تؤكد براءتها وتستشف دخيلته.

نوال لم تر منه غير ظل حام فى خيالها لحظات ثم توارى فى الخفاء ، فلا هى عرفته ولا تأثرت به ، ما غذّى فيها قوى الفناء كما اعتقد وما هزّ من أعماقها شيئاً ساكنا . الضعف والتهاوى كانا يستشريان فيها من قبل أن تقترب منه لأنها لم تعرف ماذا تكون ولم تحاول أن ترى نفسها واضحة حقيقية . عاشت بذكرى أبيها واعية كلماته متمثلة معانيها ، ظنت أن حديثه لها وهى صغيرة يحتفظ بنفس معانيه ، قال لها أن شرف الإنسان يضيع إذا امتدت يده بالسؤال ولاتزال لديه

قدرة على التنفس ، فتصورت أنه يكفيها أى عمل يحفظ عليها الشرف ! قصد الرجل أن يؤسس فيها مبادئ الكفاح لتعرف أن الحياة مصطرع لكنه لم ينتظر ليفصح لها عما ستفهمه حين يتغير أحساسها بالحياة وتنشب فيها غرائز البقاء أنيابها . عزمت ألا تحصل على شئ دون مقابل ، ولم يكن لديها سوى هذا المقابل فعاشت به على شرف العمل !

إذن فقوى الهدم التى تحدث عنها كانت تنخر فى بنيانها من قبل حديثه معها، وكانت ستهدمها وإن لم يحدّثها أو يلتقى بها ، ذلك لأنها عاشت بروح غير روحها وانعكست عليها ظلال الآخرين حقائق وحقيقتها عنها متوارية ، فكان لابد من تمرد كيانها الذى لم يخلق لغير روحها هى أو أن تصعد روحها إلى بارئها شاكية نبذ صاحبتها لها . فى لحظة من لحظات عمرها كانت ستنتبه ، بك أو بسواك ،لتجد ما تبقى مما ادعته من شرف العمل هباء . سواء حملتك قدماك من الشاطئ لبيتها أو اختلف تدبير الأقدار فنهايتها مقدرة ، أن كنت أدركت ما أدركته الآن فلم تشرد بك همومك وخواطرك ، وعدت لمأواك تفرغ أحزانك بين الأوراق ، فهل تظن أن حياتها كانت ستمسى أطهر وأسمى ؟ كانت ستبيت ـ على الأقل ـ لاتجد ما يسد رمقها ، أما تعرضك لها فقد حرك مشاعرها ومس فى نفسها ما أخفته ظلمة الليالى الشائنة . حركت فيها روحها ، ولست على هذا تلام.

قال له عدنان أنه أخطأ لو كان يتطلع للمثل الأعلى الذى آمن به ويحاسب نفسه إليه لأنه يلمح فى باطنه مالا يدركه سواه من دوافع خافية وليس إلى هذا تنهض الأحكام على أفعال البشر ، ربما اعتبره إنسان مثاليا رفيعا إذ نبه فيها ضميرها ووجدانها ، بينما هو فى أعماقه يقتفى آثار خياله وما توحى به من فضيلة

دون اعتبار لنفس من يحدثه ، من آل على نفسه الهداية عليه أن يعرف من يهديه. الآن يرى المسألة بوضوح..

يذكر ما تحرك فى أعماقه بخفاء شديد واصطخب فى فوار الخواطر والأحاسيس وقتها فلم يميزه . هذا الصخب كانت علته هناء ، الآن عرف علة هذا الصخب فبدأت تهدأ الأصوات ويميز من بينها هذا النداء الخفى الذى أيقظ ضميره يقظته . الشفقة هى التى حركته ووجهت بندائها حديثه ومسلكه، لم تكن دعوة مصلح صدّق بها أو نداء بالخير والعطف استجاب له أو مثالية يهتدى بنبراسها ، نعم تحركت فى نفسه كل تلك الدوافع لكن من ورائها ذلك الشعور المستخفى الذى اهتزت به نفسه كلها دون أن يدركه وقتها ادراكا كافيا، كانت ملابسها القديمة المشوشة حين أقبلت عليه تبتسم وتدعوه لبيتها مقابل عشائها ، كانت يدها الممدودة إليه فى تهاون تسأله ثمن طعامها ، كانت ملامحها الساكنة سكون المريض استسلم للرقاد بعد يوم شاقه فيه المرض ، وهو ينظر إليها فى يقظته ، كانت حجرتها الحقيرة وذلك العود المعدوم معلق فوق جدرانها، وقد حكم عليه معها بالبلاء . كان منطقها الخائر الذى تحدثه به وتدافع عن نفسها والذى أرهقه أن يواجهه على ضعفه وخوره . كان فزعه حين تراءت له فى سنها المتقدمة وقد ذبلت فيها دواعى الفتنة والغواية وتبدت فى صورة مؤلمة تنشد الناس إحساناتهم .. لا بد أنها لحظتها كانت ستفعل ما فعلته ، أو يلقى بها فى إحدى المصحات العامة منهوكة العقل والبدن . لم تكن ترى ما يراه وازدادت حيرته واشفاقه عليها فحاول أن ينير لها الطريق عسى أن تنتبه وتستنقذ نفسها من هاوية لاينقذها منها سواها . فهل يلوم نفسه أن أشفقت على كيان بشرى مهان ؟ هل يمتهن ذلك الشعور الأصيل من نفسه ويلجأ لدوافعه التالية يستفسرها موقفه ويحتكم اليها ؟ أيسأل هو حين تختصر على

نفسها عذاب السنين التالية ويستريح أن مضت فى هدوء لحتفها ؟ بل هنالك يلتمس فى أعماقه أثراً للفضيلة خالية من مفاهيم التعالى والمثالية ، أثراً يحرك النفس بأفكارها ومشاعرها ، يوقظ ضميره ومعه نبض حياة وكيان حقيقى له وجود وليس ظلا متواريا.

تسللت إليه فرحة غريبة وتلك الخواطر تنساب فى نفسه فتضئ من أعماقه جوانب تصورها أظلمت ، اكتشف فى كيانه أعمق المشاعر الإنسانية وأجلها بل كانت الباعث والمحرك لكل ما تراءى له من أسباب تصرفه ، حتى عدنان أقرب الناس إليه وأعرفهم به عجز أن يدرك فيه هذا الشعور نحو تلك المرأة، كان منتهى غوصه بداية ذلك الكشف المبين . هو لايلومه فقد أعانه بغير شك لأنه أجبره أن يبحث لنفسه عن معنى فى الحياة حين حطم فى وجهه كل وسائله وموه عليه كل السبل ، حين تبين ألا جدوى من أن يستمر وهو ظالم لنفسه فقر قراره أن يلحق بمن سبق فإذا به يفترق عن الجميع ويبرز منه انسان حقيقى تؤالفه الحياة وتوافقه وهو فيها ضرورة مؤكدة . ما أروعك أيها الشعاع الأمين وما أحق تلك الفرجة التى نفذت منها بين السحاب المتصل ، كنت قوياً فاخترقت مسارك ساطعا غير عابئ بأستار الليل المتكاثفة . حقا عكست منه صورة منحرفة متشابكة لكنك نبهت من يرنو إلى صفحة الماء متمثلا فى وعيه حاجزاً من الصخر أن هنالك ينعكس شئ يجدر به ملاحظته ، شئ قد غفل عنه طويلا مستسلما لظلمة تحيطه وأخرى فى باطنه ، شئ قريب قريب لكن لم يره .. نفسه.

كأن الضياء قد أرسل برسول فاستقبل استقبالا حسنا فتقدم واثقاً مطمئنا لمستقبله ، الفجر بدأ يوحى بنهار جلّى والوجود أخذ يتخلى عن غموضه ويفصح للعيون عن مستدق الأشياء وأنشأت صورته المنعكسة فوق صفحة الماء تبهت وتنمحى كلما أقبل النور غامراً مجليا مؤكداً وجوده الحقيقى ، فما كان بهتان الظل

وانمحاؤه سوى إيمانا بالواقع واكتفاء به ، هل أنت فى حاجة يامراد لعون شعاع وقد شاعت السماء بالنهار؟

خطا عدة خطوات بتمهل وثبات مساوقا أفكاره وخواطره التى تساءلت بثقة عن أمر لم تكن تجرؤ أن تحتويه ، الذى كان ينكره فى وعيه نكرانا متهما نفسه بالضعف والنكوص ، كيف يسمح لها أن تضع " عدنان الألفى" موضع النقد والتقدير وهو ـ فى نظره ـ فوق كل تقدير ؟ أيحسب لديه من مقدرة الحكم ما به يزن موهبته وأصالته ؟ ألديه من الثقافة والوعى ما يحيط بثقافته ووعيه حتى يزنه بميزانه ؟ أليس هو الذى أخذ بيده وطمح فيه لما لم يدركه هو فى نفسه؟ بل هو الذى أمده بمفاتيح المعرفة وهو عنه بعيد لايدرى من أمره شيئاً ، إذن كيف يسمح لفكره أن يتناوله ويقيّمه ؟ أما هذه اللحظة فيتساءل باطمئنان أنه لن يتُهم أو ينُكر عليه : من هو عدنان هذا ؟

انه ليدهش الآن من نفسه كيف لم يجبها عن سؤالها ذاك فلم تتمرد أو تثور ورضت منه بالعزوف مخافة النكران والاتهام ، ألهذا الحد أهملها وزجرها بل أنكرها وجهل بها ؟ ثم أقبل بلهفة يحتوى كيان غيره ، يحفظه ويطمئن به، كيف يسرت لسواك أن يحل فيك ، لم اذن أعطاك الله روحا غير روحه أن كنت تضطهدها وتستخف بها ؟ إن لك حقا فى الوجود مثله تماما ، لقد كدت أن تزهقه ! بادعاء الثقافة والمعرفة وادعاء الحياة أسبق للكائن الموجود من أى ادعاء!

من هو عدنان بالنسبة لك ؟ ذلك هو السؤال الحقيقى فلست موكولا بنقده صحفياً وكاتبا ، وان كانت تلك بدايتك معه.

وجد نفسه يرد بوضوح لايخلو من دهشة ، لم يكن عدنان بالنسبة لى سوى الكاتب والصحفى ، فماذا يتبقى منه اذا فصلت عنه ما آباه فيه ، لن يتبقى شئ يا مراد فما رأيك ؟ فكر بعمق وروية . أحقا لايرى فيه الآن صداقة شخصية متينة؟ بم يفسر اذن اهتمامه به وحرصه على تثقيفه وهدايته ؟ ما معنى ان يجادله فى علاقاته بالآخرين مشيراً عليه وناصحا بالمسلك القويم ؟ كيف كانا يتناولان القضايا المختلفة بنفس الروح والمنهج مؤمنين بوجهة نظر واحدة مفادها الترقى والاصلاح؟

لم يضطرب أمام تلك الأسئلة المتلاحقة ولم يهتز رأيه الأخير ، إن قوة اصيلة تحرك جوارحه نابعة من صميم الذات ، فهل يؤثر فيها إلا ما يماثلها قوة وأصالة؟ أجاب بهدوء : نعم كان لنا نفس المنهج والروح وكنا نتطلع لوجهة واحدة ، لكن ذلك المنهج كان منهجه هو والروح روحه والوجهة وجهته .. لقد صدقت أنى أطاوله منطقا وجدلا وأنا نتفق فى النهاية كندين ، لكن ما كنا نتفق عليه لم يكن غير ما يفكر هو فيه وإن تغير فيه الشكل . هل كان حريصا على مطالعاتى وقراءاتى إلابالقدر الذى يهيئ عقلى لقبول ما يريد ، ألم يكن هو دائماً الذى يحمل لى الكتب ويقول لى اقرأ فى هذا يا مراد إنها كتب ثمينة لذوى مواهب نادرة ، وأردد ما أسمع وما أقرأ ، هل طلبت منه كتابا بعينه مرة ؟ لم يحدث ، فما كان الوقت ليسمح لى بالترجمة والقراءة كما أشاء . كان يرمى للتسلط على عقلى ، ربما كان يدبر شيئاً فى الخفاء ، كان دائم الحديث عن الجمعية الفابية التى أسسها شو ، فهل انتوى أن يؤسس جمعية فكرية مشابهة تقود أفكاره فى محيط الناس؟ إننى حتى لم أنتبه لمضمون أفكاره تلك وحقيقتها وإنما بهرتنى معانى المثالية والفضيلة والاصلاح بين الناس ، معانى كتب فيها وأسرف فى الحديث عنها ، لم اسأل ماذا يهدف من ورائها ،ولما اختلفنا فى المرة الأخيرة انطلق غاضبا مبرراً غضبه

بسوء ظنى وشيئاً سماه ايلام الذات ، لأننا لم نتفق . بل فى الحقيقة لأننى لم أصدقه تلك المرة فهددنى بطريق خفى أن ينتزع نفسه من حياتى فتهوى ، كادت تهوى بالفعل ، ألم أجد له المبرر لغضبه واعتسفت على نفسى الحكم ظالما وكتبت له أنى خيبت فىّ رجاه .. أى رجاء هذا الذى رجاه فىّ ؟ أن أصبح كاتبا؟

شعر بألم غائر لم يبال به وهو يجيب ساخراً : تلك إذن نقطة الضعف التى نفذ إليك منها ، لقد حرك فيك أملا كاذبا لابد أنه ميزه منذ اللحظة الأولى ، ذلك الذى ظننته خافيا متواريا حتى عن وعيك ، أنت لم تكن أمامه سوى نموذج يعده ليردد بما يشاء ويفكر بما يطرحه فى عقله من مسائل جاهزة ، مستغلا ما تتركه الترجمة من تأثير فى خواطر المترجم يظنها من إلهامه ووحيه . أليست تلك هى الحقيقة ، وما كان هنالك من صداقة شخصية متينة أو تطلع لمثالية رفيعة، فقط هدف غير منظور ، هل تنطمر موهبة الكتابة الى ما بعد الثلاثين ؟ متى تعلن عن نفسها اذن ويتحقق أثرها ؟ أنت لم تكتب أبدا عملا من قريحتك ، لم تنظم قصيدة ، لم تبدع رواية ، لم تنشئ مسرحية أو فصلا ، مقالاتك المتناثرة إن هى إلابقايا فكر ظننت نفسك صاحبه ، أليس ذلك صحيحا يؤيده واقعك؟

بجرأة جراح يفصل بمبضعه جزءا فيه يسبب هلاكه لو استشرى أثره ، بذلك الألم المعذب الذى تصرخ به كل خلية من خلاياه مستمسكاً بقوة عجيبه بصحة كيانه من بعد ، بهذا الثبات النادر صرح لنفسه بكذب أمله وضلال مقصده وخداعه لها هذا الزمن البعيد . بسط لها حقيقة ما ادعاه ، أنه يخلو من أى حقيقة، انه ليس موهوبا للكتابة أو غيرها ، أن ما تصوره إن هو الا انعكاسا زائفا لخيال مضلل ، إن هو الا ظل سواه ، عليك أن تبصرى الحقيقة أيتها العينان والا فلتغمضيا إلى الأبد . لخير أن يبصر نفسه معدنا نقيا معلوم الهوية من أن

تنطمر وتنصهر فلا يعرف لها تركيبا ، وإن كان معدنا بسيطا ، وان كان يستبدل به ذرة من معدن ثمين تضيع هباء فى بنيان معقد غريب لايقر لها فيه وجود.

شعر مراد إثر هذا بأنه فقد شيئاً هائلاً ، تحررت عزيمته من ثقل ضخم لم تخلق له ، اختل ادراكه بما انتزع منه وكان متشبثا بإصرار ، خفت أحاسيسه وكانت ملجمة بطغيان الخيال الكاذب البغيض . أوشكت قدماه أيضاً أن تعبرا عن تلك الخفة المفاجئة من وزنه الثقيل . تطلعت إرادته لفعل تعبر به عن واقعها الجديد، عليه أن يترجم تحرره من تلك الأصفاد ويرسل من ذاته انعكاسا واضحا على الوجود المحيط بها. لن يقابل عدنان بعد اليوم ولن يقرأ له، سيبحث لنفسه عن عمل لاتكون أداته القلم ، لن يلتفت لشهرة كاتب أو أديب فللآخرين أهميتهم وجدواهم فى الحياة . سوف يكون من هؤلاء الآخرين.

ثم انتبه لاندفاعه : لاتسرفن فى رد الفعل والا وقعت فى أسر جديد ، الفرخ الصغير إذا استهواه جناحاه فرفرف بهما هويا به بدلا من أن يحملاه ، لم تخش أن تواجهه طالما أنك قد عرفت نفسك وعرفت ما تريده بها ؟ هل تخشى أن تخبره أنك تنازلت عن طموح طمحت إليه واستسلمت لراحة التشابه بالناس؟ أن تخاف أن يسخر بخواطرك ويزين لك أفكار سواك ؟ لم تحرم نفسك قراءته أو قراءة غيره ؟ ألم تكتسب عيناك نفاذ البصر توجهه كيف شئت بغير كلال؟ لتكن من الآخرين كيف أردت ولكن لاتفقد أحدا منهم جدواه وإن كان كاتبا!

باطمئنان وثقة رد على نفسه اندفاعها المزعوم ، لقد اصبح يعرفها جيدا ! إننى لا أخشى أن أواجه أحداً إن كان حيا أو ميتا ، إنما لاجدوى من مواجهة عدنان ، لقد تخيرت طريقا ليس هو من معالمه ، كما أنه هو الذى ذهب عنى فلن أقبل أنا عليه ، اذا كانت الصداقة مفقودة بيننا فلست ندا له وليس ندا لى، فلكل منا

وجود مختلف . ماذا فيما يكتبه سوف يثيرنى ، لقد عرفته هو فبم تجدى كتابته؟ عرفت نفسى لن يجدينى ما أقرؤه له ، بقية حياتى موهوبة للعمل والعرق .

تساءلت نفسه باستحياء : وذلك الخطاب الذى تركته له ؟ ابتسم فى مرح : ما الذى سيحمله للعودة لحجرتى ، الموقف اختلف ، اذا عاد لأى سبب فليكن من خطابى ابتسامة على فمه تعنى المرارة أو حتى السخرية ، لكنها ستعنى الدهشة إذا اكتشف يوما انها بخط انسان لم يعد له وجود ! أضاف بعزم جديد : لن أعود أنا نفسى لتلك الحجرة فلم يعد لى بها موطن ، حاجياتى فيها لاتستحق عناء الحمل . "ستكون بدايتى من هنا".

طاف بذاكرته هذا المعنى الذى ردده من قبل وهو يغادر بلدته ، يومها أصر بعزم واثق : "ستكون بدايتى من هنا وسأحقق ما أريد " كان لحظتها يطأ بقدمه مدخل القطار موليا ظهره لكل ما انصرم من عمره من سنين متطلعا فى زهو لرونق المستقبل كما توحيه أحلامه وخيالاته لم يخالجه أدنى ريب فى مساندة الاقدار له ، لم يتشكك مطلقا فى ذكائه وقدرته ، صورت له الصفحات من نفسه ومن الناس عالما عجيبا تكفيه فيه مواجهة أسرته لينعم بالمجد وتمهد له سبل الشهرة كيف شاء . فقط ينزع عن نفسه هذا الإسار ، ذلك السلوك الخشن والحياة الصارمة ، ليبتعد عن هؤلاء الجهلاء فهو أقوى وأعلم ومؤيد من السماء. ألم تجسد له أحلامه رؤى المستقبل فبات فى أعماقه يردد ما رددت ويستمسك ببقاياها يعيش عليها نهاره؟

اليوم تردد ما رددت من قبل ، بأى قدر من الثقة هذه المرة وعلى أى شئ قد عزمت ؟ أن تصبح بشير الإنسان الأعلى ؟

لم يأبه لتلك الرنة الساخرة ولم يلمح فيها همسة حزن ، بل رد على تلك

الخواطر بذلك المنطق الواضح الذى سرى فى عقله سريان العصارة فى جزع الشجر : ليس ذلك ما قلته بالأمس وإن تطابقت الكلمات ، اليوم أعرف ما افوه به وما كان ذلك حالى من قبل ، بقدر من الثقة أفوه به ليساوى تلك التى اقتربت بها من الموت وابتعدت بها عنه . الثقة فى شعاع من نور يهدينى اذا اكتنفتنى الظلمات . أما الذى عزمت عليه فهو أن أكد بيدى عملا صالحا نافعا لى ولمن حولى ، أكون قادراً عليه ، ثم أقترب اذا شئت من عالم المفكرين . ما عزمت عليه أن أصحح كلمة قلتها لوالدى فى غرور وصلف ، أن الأرض خلقت لنا ولم نخلق نحن لها ، بل نحن خلقنا منها ولها وهى محك حياتنا ، نحن الذين أحاطنا الزرع من كل جانب سواء فى المكان أو الزمان البعيد ، لن ينزعنى من هذا المكان وهم بعد الآن ولن يرائينى الزمان بمستقبله فأنا ابن الماضى دائما .. وهو التاريخ.

قرر فى غمرة حماسه أن يعود لبلدته فى الحال ، لن يعبأ بنظرة شامته أو كلمة ملتوية غامضة ، فليس لديه نظر وسمع لهذه الأشياء ، سيرى فقط النظرة القوية من عينى أبيه ، سينصت لهمس الرياح وهى تداعب النخيل أو عصفها حين تلقى على الحقول بموعظة ، سيدرك ما لقنته السماء للأرض من تراتيل ، كان عبثا أن بحث عن تفسيرها بين الصخور ، التى أزهقت فيها دهور وهى صامته ساكنة لاتنطوى على شئ .. يحسب المتأمل ان لصمتها معنى غير ما تعنيه صلادتها من جمود وموات.

كان قد هبط السلالم نحوها واقترب فى غضب منحنيا عليها يتحسسها بيده فما شعر بغير القسوة والحدة والتبلد الشديد ، فقال : " أتلك مادتك ايها الصخر

المتكبر التى أوشكت أن اختلط بها منذ قليل ، التى ظننت ان تفصح لى حينئذ عن سرها .. إلى هذه النهاية البائسة اذن استقبلت من استقبلتهم من قبل؟ . لكن لا لوم عليك أن خنتهم فقد خانوا أنفسهم من قبل وخانوا الحياة.

ثم أضاف وهو يتأمل الارتفاع الشاهق الذى يفصله عن مستوى الطريق : "من هنا تكون بدايتى" . وقد كرر هذا القول من قبل.

* * *

صدر للمؤلف

١. ميراث العهد

٢. وعد العمر

٣. حينما تهدي الأقــدار

٤. حوارات عن الاسلام والمسلمين من شرق العالم إلى غربه

٥. الحاجز الصخـــري

٦. حصاد الفن (تحت الطبع)

رقم الايـــــداع ١٠٦٦٨/ ٢٠١٧
الترقيم الدولي - - - - I.S.B.N